

محاضرات

مقرر: علوم القرآن 1

د. ياسر

المستوى الثالث – دراسات اسلاميه

2015 - 2014

المحاضرة الأولى

١- تعريف علوم القرآن الكريم

٢- نشأة علوم القرآن

تعريف العلوم:

العلوم جمع علم والعلم نقيض الجهل وهو مصدر مرادف للفهم والمعرفة ويراد به إدراك الشيء بحقيقته أو اليقين أو هو نور يقذفه الله في القلب. ويطلق العلم على مجموع مسائل وأصول كلية تجمعها جهة واحدة مثل علم النحو، وعلم الطب، وعلم الكيمياء. ويجمع على "علوم" وقد تسمى به المباحث التي تتناول موضوعاً واحداً مثل: علوم العربية، والعلوم الطبيعية، والعلوم التجريبية.

تعريف القرآن لغة:

اختلف العلماء -رحمهم الله تعالى- في لفظ القرآن لكنهم اتفقوا على أنه اسم فليس بفعل ولا حرف. وهذا الاسم شأنه شأن الأسماء في العربية إما أن يكون جامداً أو مشتقاً. فذهب جماعة من العلماء منهم الشافعي إلى أنه اسم جامد غير مهموز وبه قرأ ابن كثير وهو اسم للقرآن مثل التوراة والإنجيل. وذهبت طائفة إلى أن هذا الاسم مشتق ثم افترقوا إلى فرقتين: فقالت فرقة منهم إن النون أصلية وعلى هذا يكون الاسم مشتقاً من مادة "ق ر ن" ثم اختلفوا: - فقالت طائفة منهم الأشعري ١: إنه مشتق من قرنت الشيء بالشيء إذا ضمته إليه ومنه قولهم: قرن بين البعيرين إذا جمع بينهما ومنه سمي الجمع بين الحج والعمرة في إحرام واحد قران. - وقالت طائفة منهم الفراء: إنه مشتق من القرائن جمع قرينة لأن آياته يشبه بعضها بعضاً. وقالت فرقة منهم: إن الهمزة أصلية ثم افترقوا أيضاً إلى فرقتين: - فقالت طائفة منهم اللحياني ٣: إن القرآن مصدر مهموز بوزن الغفران مشتق من قرأ بمعنى تلا سمي به المقروء تسمية للمفعول بالمصدر

تعريف القرآن اصطلاحاً:

اختص القرآن الكريم بخصائص كثيرة ولعل هذه الخصائص سبب الاختلاف في تعريف القرآن بين العلماء، فكل تعريف يذكر خاصية للقرآن يعرف بها لا يذكرها الآخر ولهذا تعددت التعريفات. فإذا كان هناك رجل طويل ويلبس ثوباً أبيض ورداء أحمر وحوله أشخاص أقصر منه قامته ويلبسون ثياباً ملونة وأردية بيضاء، فإن قلت: فلان هو الطويل فقد عرفته، وإن قلت: إنه الذي يلبس الثوب الأبيض فقد عرفته وإن قلت الذي يلبس الرداء الأحمر فقد عرفته والمقصود في الكل واحد وإن اختلفت التعريفات. وللعلماء في تعريف القرآن الكريم صيغ متعددة بعضها طويل ولعل أقربها تعريفهم للقرآن بأنه:

"كلام الله تعالى المنزل على محمد -صلى الله عليه وسلم- المتعبد بتلاوته."

شرح التعريف:

فقولنا: كلام الله: خرج به كلام الإنس والجن والملائكة.
وقولنا: المنزل: خرج به ما استأنث الله بعلمه أو ألقاه إلى ملائكته ليعملوا به لا لينزلوه على أحد من البشر،
ذلكم أن من كلام الله ما ينزله إلى الناس ومنها ما يستأنث بعلمه: {قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا} ١.

{وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ} ٢.

وقولنا: على محمد -صلى الله عليه وسلم- خرج به المنزل على غيره من الأنبياء كالتوراة

نشأة علوم القرآن وتطورها

في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم:

حين نزل جبريل على الرسول -صلى الله عليه وسلم- في غار حراء بصدر سورة اقرأ نزل عليه الصلاة والسلام وذهب إلى زوجته خديجة -رضي الله عنها- وأخبرها بما حدث في الغار وتلا عليها الآيات من حفظه.

وحين أمر الله سبحانه وتعالى نبيه بأن يصدع بما يؤمر، وأن يعلن الدعوة إلى الإسلام امتثل الرسول -صلى الله عليه وسلم- الأمر فدعا الناس إلى الإسلام، وأقبل من أسلم منهم على القرآن الكريم يتلونه حق التلاوة ويجتمعون في دار الأرقم بن أبي الأرقم لحفظه وتدبر آياته وكانوا عرباً خالصاً يفهمون القرآن بمقتضى السليقة العربية فإن أشكل عليهم معنى أو غمض عليهم مرمى سأل بعضهم بعضاً، فقد يكون أحدهم أعلم من الآخر فإن أشكل عليهم سألوا الرسول -صلى الله عليه وسلم- فبينه لهم.

وبهذا ندرك أن علوم القرآن نشأت منذ وقت مبكر في الإسلام بل منذ أشرقت شمس الإسلام؛ ذلكم أن حفظ القرآن وتلاوته وتدبره وتفسيره من أهم علوم القرآن الكريم.

في عهد الصحابة رضي الله عنهم:

وإذا نظرنا إلى حال الصحابة رضوان الله عليهم وجدناهم يتعلمون علوم القرآن مشافهة، ولم يعرف عندهم تدوين لعلوم القرآن لعدة أسباب أهمها:

١- أن أغلب الصحابة كان أمياً لا يعرف القراءة ولا الكتابة.

٢- أن أدوات الكتابة لم تكن متوافرة عندهم.

٣- أن الرسول -صلى الله عليه وسلم- نهاهم عن كتابة شيء غير القرآن بقوله صلى الله عليه وسلم: "لا تكتبوا عني ومن كتب عني غير القرآن فليمحاه". ويعتقد بعض الناس أن الرسول -عليه الصلاة والسلام- إنما نهى الصحابة عن كتابة شيء غير القرآن خشية أن يلتبس بغيره ويظهر لي -والله أعلم- أن هذا ليس بصحيح ذلكم أن القوم كانوا ذوي ذكاء في القريحة، وتدقيق للبيان، وتقدير للأساليب ووزن لما يسمعون بأدق المعايير ويدركون إعجاز القرآن الكريم -بمجرد سماعه- إدراكاً تاماً يأخذ منهم بالألباب ويسيطر منهم على الأفئدة فأنى لهم أن يختلط عندهم بغيره من كلام البشر، بل العلة في ذلك أنه صلى الله عليه وسلم

أراد توزيع مسئولية التبليغ عنه على جميع الصحابة ولو أذن للكتاب بالكتابة لاعتقد الأميون أن مسئولية التبليغ مقصورة على الكتاب الذين يحتفظون عندهم بالنصوص الشرعية وأن ذمتهم هم بريئة، فلما نهى الرسول -صلى الله عليه وسلم- من يكتب عن كتابة غير القرآن أصبح الصحابة كلهم سواسية في التلقي عن الرسول -صلى الله عليه وسلم- لا يتميز من يكتب عن لا يكتب وأصبحت الدعوة إلى الله يشترك فيها الجميع وخير للدعوة أن ينشرها كل الصحابة من أن يقتصر أمرها على عدد من الكتاب.

فإن قلت: إن كان الأمر كذلك فلم أذن لهم الرسول -صلى الله عليه وسلم- بكتابة القرآن؟ قلت لك: إن تبليغ القرآن لا يرد عليه ما يرد على تبليغ غيره فلن يعتقد الأميون منهم أن تبليغه واجب على الكتاب فحسب فهم يقرؤونه سرا وجهارا في بيوتهم وفي مساجدهم في خلواتهم وفي مجتمعاتهم وفي صلواتهم، فلتبليغه وسائل كثيرة لا تتحقق لغيره ولا تقتصر على الكتاب دون الأميين فالجميع يتلوه ويقوم به آناء الليل وأطراف النهار فلن يتكل الأميون

في تبليغه على الكتاب لإدراكهم أن الجميع مكلف بتلاوته في السطور وحفظه في الصدور.

ولهذا تغلب الصحابة -رضوان الله عليهم- على الأسباب السابقة المانعة من تدوين علوم القرآن بما حققوه للقرآن، وذلك بالاعتماد على قوة الحافظة فحفظوا علوم القرآن كما يحفظون الآيات، أخرج الطبري عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن^١ وروى أبو عبد الرحمن السلمي قال: "حدثنا الذين كانوا يقرئونا: أنهم كانوا يستقرئون من النبي -صلى الله عليه وسلم- فكانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يخلفوها حتى يعلموا بما فيها من العمل فتعلمنا القرآن والعمل جميعاً"^٢.

ويقول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: "والله الذي لا إله غيره ما نزلت سورة من كتاب الله إلا أنا أعلم أين نزلت ولا أنزلت آية من كتاب الله إلا أنا أعلم فيم أنزلت ولو أعلم أحدا أعلم مني بكتاب الله تبليغه إلا بل لركبت إليه"^٣، ويقول علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - وهو على المنبر: "سلوني فو الله لا تسألوني عن شيء إلا أخبرتكم وسلوني عن كتاب الله فو الله ما من آية إلا وأنا أعلم أبليل نزلت أم بنهار أم في سهل أم في جبل"^٤، والنصوص في ذلك كثيرة كلها تثبت أن الصحابة رضوان الله عليهم لم يكتفوا بحفظ نصوص القرآن الكريم فحسب بل حفظوا معها علومه ومعارفه.

واشتهر كثير من الصحابة بتفسير القرآن منهم الخلفاء الأربعة، وابن عباس، وابن الزبير، وأبي بن كعب وزيد بن ثابت، وعبد الله بن مسعود، وأبو موسى الأشعري وعائشة رضي الله عنهم.

وكثر الرواية في التفسير عن علي بن أبي طالب وابن عباس وابن مسعود وأبي بن كعب رضي الله عنهم.

ولم يتكلف الصحابة رضوان الله عليهم التفسير ولم يخوضوا فيما لا فائدة كبيرة في تحصيله، ولم يكن تفسيرهم يشمل القرآن كله فبعض الآيات من الوضوح لديهم بحيث لا تحتاج إلى بيان لمعرفتهم للغة وأحوال المجتمع وأسباب النزول وغير ذلك، وقد كانوا يهتمون بنشر علوم القرآن بالرواية والتلقين لا بالكتابة والتدوين.

في عهد التابعين رحمهم الله تعالى:

وحين اتسعت الفتوحات الإسلامية انتشر الصحابة رضوان الله عليهم في البلدان المفتوحة يعلمون أهلها القرآن ويفسرون لهم معانيه، وينشرون لهم علومه ومعارفه فبذله لهم الصحابة وفتحوا لهم صدورهم وأفسحوا لهم مجالسهم؛ فنشأت ما يصح أن نطلق عليها المعنى الحديث "مدارس التفسير" وهي كثيرة وأشهرها ثلاث مدارس:

مدرسة ابن عباس رضي الله عنهما في مكة:

وهو حبر هذه الأمة وترجمان القرآن وهو الذي دعا له الرسول -صلى الله عليه وسلم- بقوله: "اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل" ١.

ومن أشهر تلاميذه سعيد بن جبير، ومجاهد بن جبر، وعكرمة مولى ابن عباس، وطاوس، وعطاء بن أبي رباح.

مدرسة أبي بن كعب رضي الله عنه بالمدينة:

وقد كان رضي الله عنه أحد كتاب الوحي، وإمام القراء، شهد له الرسول -صلى الله عليه وسلم- بقوله: "أقرؤهم أبي بن كعب" ١.

ومن أشهر تلاميذه زيد بن أسلم، وأبو العالية الرياحي، ومحمد بن كعب القرظي.

مدرسة عبد الله بن مسعود رضي الله عنه في الكوفة:

وهو أول من جهر بالقرآن وأسمعه قريشاً بعد الرسول -صلى الله عليه وسلم- قال عنه الرسول عليه الصلاة والسلام: "من أحب أن يقرأ القرآن غضا كما أنزل فليقرأه على قراءة ابن أم عبد" ١ يعني ابن مسعود وأخبر هو عن نفسه فقال: "والله لقد أخذت من في رسول الله صلى الله عليه وسلم بضعا وسبعين سورة" ٢

المحاضرة الثانية

تابع : نشأة علوم القرآن

مدرسة أبي بن كعب رضي الله عنه بالمدينة:

وقد كان رضي الله عنه أحد كتاب الوحي، وإمام القراء، شهد له الرسول -صلى الله عليه وسلم- بقوله: "أقرؤهم أبي بن كعب" ١.

ومن أشهر تلاميذه زيد بن أسلم، وأبو العالية الرياحي، ومحمد بن كعب القرظي.

مدرسة عبد الله بن مسعود رضي الله عنه في الكوفة:

وهو أول من جهر بالقرآن وأسمعه قريشاً بعد الرسول -صلى الله عليه وسلم- قال عنه الرسول عليه الصلاة والسلام: "من أحب أن يقرأ القرآن غصاً كما أنزل فليقرأه على قراءة ابن أم عبد" يعني ابن مسعود وأخبر هو عن نفسه فقال: "والله لقد أخذت من في رسول الله صلى الله عليه وسلم بضعة وسبعين سورة".

ومن أشهر تلاميذه علقمة بن قيس، ومسروق بن الأجدع، وقتادة بن دعامة، وعمر بن شراحيل، وأبو عبد الرحمن السلمي.

وأهل مكة، وأهل المدينة، وأهل الكوفة هم أعلم الناس بالتفسير كما يقول ابن تيمية رحمه الله تعالى: "وأما التفسير فإن أعلم الناس به أهل مكة، لأنهم أصحاب

ابن عباس كمجاهد وعطاء بن أبي رباح، وعكرمة مولى ابن عباس وغيرهم من أصحاب ابن عباس، كطاووس، وأبي الشعثاء، وسعيد بن جبير وأمثالهم، وكذلك أهل الكوفة من أصحاب عبد الله بن مسعود، ومن ذلك ما تميزوا به على غيرهم، وعلماء أهل المدينة في التفسير مثل زيد بن أسلم" ٣.

ولم يكن تفسير هؤلاء وغيرهم من الصحابة والتابعين مقتصرًا على علم التفسير بمعناه الخاص بل كان يشمل مع هذا علم غريب القرآن، وعلم أسباب النزول، وعلم الناسخ والمنسوخ، وعلم المكي والمدني، ونحو ذلك.

كما لم يكن شاملاً للقرآن الكريم، ولا مدونًا، وإنما كان بالرواية والتلقين.

عهد التدوين:

وفي هذا العهد دونت بعض علوم القرآن الكريم كالقراءات وغريب القرآن والناسخ والمنسوخ وأما التفسير فكان تدوينه حين بدأ تدوين الحديث النبوي، ومر بمراحل قبل أن يكون على ما هو عليه الآن.

فبدأ تدوينه أول ما بدأ على أنه باب من أبواب الحديث، وممن دونه في هذه المرحلة: يزيد بن هارون السلمي "ت ١١٧هـ"، وشعبة بن الحجاج "ت ١٦٠هـ" ووکیع بن الجراح "ت ١٩٧هـ"، وسفيان بن عينة "ت ١٩٨هـ"، وغيرهم، وكان جمعهم للتفسير جمعًا لباب من أبواب الحديث، ولم يكن جمعًا للتفسير على استقلال وانفراد. وجميع ما نقلوه فيها كان بالإسناد ولم يصل إلينا شيء منها ١.

ثم دون التفسير مستقلاً وأصبح علماً قائماً بنفسه وأشهر من دونه على هذا النحو يحيى بن سلام البصري ٢
"ت ٢٠٠هـ"، وابن ماجه "ت ٢٧٣هـ"، وابن جرير الطبري "ت ٣١٠هـ"، وأبو بكر بن المنذر النيسابوري
"ت ٣١٨هـ"، وابن أبي حاتم "ت ٣٢٧هـ"، وابن حبان "ت ٣٦٩هـ"، والحاكم "ت ٤٠٥هـ"، وابن مردويه
"ت ٤١٠هـ"، وغيرهم وكل ما في هذه التفاسير كان بالإسناد.

ويعد تفسير ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى أقدم تفسير شامل وصل إلينا كاملاً عرض فيه صاحبه
للأقوال والروايات المختلفة في التفسير ورجح بعضها على بعض، كما عرض للإعراب والاستنباط واللغة
وله في ذلك السبق ١.

والتفسير -كما نعلم- أحد علوم القرآن الكريم، بل هو نواة علوم القرآن الكريم وبهذا يكون التفسير أول علم
من علوم القرآن بدأت الكتابة فيه.

وقد ألف العلماء في العلوم الأخرى كتباً مستقلة منها ما وصل إلينا ومنها ما هو مفقود.

وفي القرن الثاني الهجري:

ألف الحسن البصري "ت ١١٠هـ" في "القراءة"، وعطاء بن أبي رباح "ت ١١٤هـ" في "غريب القرآن"،
وقتادة بن دعامة السدوسي "ت ١١٧هـ" في "الناسخ والمنسوخ".

وفي القرن الثالث الهجري:

ألف أبو عبيد القاسم بن سلام "ت ٢٢٤هـ"، في "الناسخ والمنسوخ"، وعلي بن المديني "ت ٢٣٤هـ" في
"أسباب النزول"، وابن قتيبة "ت ٢٧٦هـ" "تأويل مشكل القرآن" و"تفسير غريب القرآن".

وفي القرن الرابع الهجري:

ألف أبو إسحاق الزجاج "ت ٣١١هـ" "إعراب القرآن"، وألف ابن درستويه "ت ٣٣٠هـ" في "إعجاز
القرآن"، وألف أبو بكر السجستاني "ت ٣٣٠هـ" "تفسير غريب القرآن"، وألف أبو بكر الباقلاني
"ت ٤٠٣هـ" "إعجاز القرآن".

وفي القرن الخامس الهجري:

ألف علي بن إبراهيم الحوفي "ت ٤٣٠هـ" "إعراب القرآن"، وألف الماوردي "ت ٤٥٠هـ" "أمثال القرآن"،
وألف أبو الحسن الواحدي "ت ٤٦٨هـ" كتابه "أسباب النزول"، وألف ابن ناقي "ت ٤٨٥هـ" كتابه "الجمان
في تشبيهات القرآن".

وفي القرن السادس الهجري:

ألف الكرمانى "ت بعد ٥٠٠هـ" "البرهان في متشابه القرآن"، وألف الراغب الأصفهاني "ت ٥٠٢هـ"
"المفردات في غريب القرآن"، وألف ابن الباذش "ت ٥٤٠هـ" "الإقناع في القراءات السبع"، وألف السهيلي
"ت ٥٨١هـ" "مبهمات القرآن".

وفي القرن السابع الهجري:

ألف علم الدين السخاوي "ت٦٤٣هـ" "جمال القراء وكمال الإقراء"، والعز بن عبد السلام "ت٦٦٠هـ" "مجاز القرآن"، وألف ابن أبي الأصبح "ت٦٥٤هـ" كتابه "بدائع القرآن"، وألف محمد بن أبي بكر الرازي "ت٦٦٠هـ" "أسئلة وأجوبتها".

وفي القرن الثامن الهجري:

ألف ابن القيم "ت٧٥١هـ" "التيبان في أقسام القرآن"، وألف الخراز "ت٧١١هـ" تقريباً "مورد الظمان في رسم وضبط القرآن"، وألف الطوفي "ت٧٠٦هـ" "الإكسير في علم التفسير"، وألف أبو حيان النحوي "ت٧٤٥هـ" "لغات القرآن" وألف ابن كثير "ت٧٧٤هـ" كتابه "فضائل القرآن".

وفي القرن التاسع الهجري:

ألف ابن حجر "ت٨٥٢هـ" "العجائب في بيان الأسباب"، وألف الكافجي "ت٨٧٩هـ" "التيسير في قواعد علم التفسير"، وألف السيوطي "ت٩١١هـ" كتابه "مفحمت الأقران في مبهمات القرآن" وكتابه "لباب النقول في أسباب النزول".

وفي القرن العاشر الهجري:

ألف القسطلاني "ت٩٢٣هـ" "لطائف الإشارات في علم القراءات"، وألف أبو يحيى زكريا الأنصاري "ت٩٢٦هـ" كتابه "فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن" وألف ابن الشحنة "ت٩٢١هـ" "غريب القرآن".

وفي القرن الحادي عشر الهجري:

ألف الشيخ مرعي الكومي "ت١٠٢٣هـ" "قلائد المرجان في الناسخ والمنسوخ من القرآن"، وألف أحمد بن محمد المقرئ "ت١٠٤١هـ" كتابه "إعراب القرآن"، وألف البناء "ت١١١٧هـ" "إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربع عشر".

وفي القرن الثاني عشر الهجري:

ألف عبد الغني النابلسي "ت١١٤٣هـ" "كفاية المستفيد في علم التجويد"، وألف الجمزوري "ت١١٩٨هـ" "تحفة الأطفال والغلمان في تجويد القرآن"، وألف شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب "ت١٢٠٦هـ" "فضائل القرآن".

وفي القرن الثالث عشر الهجري:

ألف الدمياطي "ت١٢٨٧هـ" "رسالة في مبادئ التفسير"، وألف الهوريني "كان حيا ١٢٨٦هـ" "الجوهر الفريد في رسم القرآن المجيد"، وألف ابن حميد العامري "ت١٢٩٥هـ" "الناسخ والمنسوخ".

وفي القرن الرابع عشر الهجري:

ألف مصطفى صادق الرافعي "ت ١٣٥٦هـ" "إعجاز القرآن والبلاغة النبوية"، وألف د. محمد عبد الله دراز "ت ١٣٧٧هـ" كتابه "النبأ العظيم"، وألف سيد قطب "ت ١٣٨٧هـ" "التصوير الفني في القرآن"، وكتاب "مشاهد القيامة في القرآن"، وألف محمد حسين الذهبي "ت ١٣٩٧هـ" "التفسير والمفسرون".

هذه أمثلة للمؤلفات في علوم القرآن الكريم في القرون السابقة وهي مؤلفات كثيرة بل لا تكاد تحصى كثرة.

وحين تنتظر فيما ذكرت في المؤلفات تجد كل واحد منها يتناول علماً واحداً من علوم القرآن الكثيرة، وقد اتجهت أنظار العلماء إلى تأليف كتب تتحدث عن هذه العلوم جميعاً فتعرف كل علم تعريفاً موجزاً وتتناوله تناولاً مبسراً، فكان هذا العلم الذي سموه "علوم القرآن" بالمعنى المدون.

انتهت المحاضرة

إعداد : SHO5i

المحاضرة الثالثة

جمع القرآن الكريم

المراد بجمع القرآن:

يطلق جمع القرآن الكريم ويراد به أحد ثلاثة أنواع:

- الأول: جمعه بمعنى حفظه في الصدور واستظهاره.

- الثاني: جمعه بمعنى كتابته وتدوينه كله حروفاً وكلمات وآيات وسورا.

- الثالث: جمعه بمعنى تسجيله تسجيلًا صوتيًا.

ولكل نوع من هذه الأنواع الثلاثة تاريخ وخصائص ومزايا، ولذا فسنتناول كل نوع على حدة.

النوع الأول: جمعه بمعنى حفظه في الصدور واستظهاره:

١- الدليل:

ويشهد لهذا النوع قوله تعالى: {لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ، إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ، فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ، ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ} ١.

فالمراد بالجمع هنا الحفظ في الصدور، ويفسره حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعالج من التنزيل شدة، كان

ويشهد لهذا النوع قوله تعالى: {لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ، إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ، فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ، ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ} ١.

فالمراد بالجمع هنا الحفظ في الصدور، ويفسره حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعالج من التنزيل شدة، كان

يحرك شفثيه.. فأنزل الله تعالى: {لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ، إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ} قال: جمعه في صدرك ثم نقرأه. {فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ} قال فاستمع وأنصت. ثم إن علينا أن نقرأه قال فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أتاه جبريل استمع فإذا انطلق جبريل قرأه النبي -صلى الله عليه وسلم- كما أقرأه ١

٢- حكمه:

حفظ القرآن كله واجب على الأمة، بحيث يحفظه عدد كثير يثبت به التواتر وإلا أئمت الأمة كلها وليس هذا لكتاب غير القرآن، وأما الأفراد فيجب على كل فرد أن يحفظ من القرآن ما تقوم به صلاته.

٣- فضله:

لم يترك الرسول -صلى الله عليه وسلم- أمراً فيه حث على حفظ القرآن إلا وسله وأمر به، فكان يفاضل بين أصحابه بحفظ القرآن، ويعقد الراية لأكثرهم حفظاً للقرآن، وإذا بعث بعثاً جعل إمامهم في صلاتهم

أكثرهم قراءة للقرآن ويقدم للحد في القبر أكثرهم أخذًا للقرآن، ويزوج الرجل المرأة ويمهرها ما مع الرجل من القرآن، فضلاً عن الأحاديث الكثيرة الداعية لحفظ القرآن وتعلمه وتعليمه.

٤- حفظ الرسول -صلى الله عليه وسلم- القرآن:

إدراكاً من الرسول -صلى الله عليه وسلم- للأمانة الكبرى التي كلف بها وهي أن يبلغ الناس القرآن: **{وَأَوْحِي إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنَ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ} ١.**

وإدراكاً منه عليه الصلاة والسلام أن تبليغ القرآن يجب أن يكون كما سمعه بلا زيادة ولا نقصان ولا استبدال لحرف بحرف أو حركة بحركة، لذا فقد كان عليه الصلاة والسلام يشعر بحرج شديد وخوف عظيم أن ينسى

شيئاً من القرآن مما جعله يحرك لسانه بالقرآن لحظة نزول الوحي مع شدة وطأة الوحي وما يعانیه من الجهد والكره عند نزوله، وما زال صلى الله عليه وسلم كذلك حتى نزل عليه قوله تعالى: **{لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتُجَازِلَ بِهِ، إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ، فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ، ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ} ١.** وقال سبحانه: **{وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ} ٢.** فكان صلى الله عليه وسلم بعد هذا إذا أتاه الوحي أطرق فإذا ذهب جبريل وجد الرسول -صلى الله عليه وسلم- القرآن مجموعاً في صدره كما وعده الله.

وقد حفظ الرسول -صلى الله عليه وسلم- القرآن كله وحفظه أصحابه، وكان جبريل يعارضه إياه في كل عام مرة في شهر رمضان، وعارضه إياه في العام الذي توفي فيه مرتين كما في حديث عائشة رضي الله عنها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إن جبريل كان يعارضني القرآن كل سنة مرة وإنه عارضني العام مرتين، ولا أراه إلا حضر أجلي" ٣ وكان صلى الله عليه وسلم يقوم بالقرآن ويتلوه آناء الليل وأطراف النهار حتى كادت أن تتشقق قدماه.

٥- حفظ الصحابة رضي الله عنهم للقرآن الكريم:

اشتد التنافس بين الصحابة -رضي الله عنهم- في حفظ القرآن الكريم وتلاوته وتدبره، وتسابقوا إلى مدارسته وتفسيره والعمل به، وكانوا لا يتجاوزون عشر آيات حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل، وكانوا يهجرون لذيق المنام ودفء الفراش ويؤثرون قيام الليل والتهجد بالقرآن حتى كان يسمع لبيوتهم دويًا كدوي النحل لتلاوتهم القرآن.

وكان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يحثهم على ذلك ويحرص على سماع تلاوتهم، فقد قال لأبي موسى الأشعري رضي الله عنه: "لو رأيته وأنا أستمع لقراءتك

البارحة! لقد أوتيت مزماراً من مزامير آل داود" واستمع لتلاوة سالم مولى أبي حذيفة رضي الله عنهما فقال له: "الحمد لله الذي جعل في أمي مثلك" ٢ وقال لابن مسعود رضي الله عنه: "اقرأ عليّ القرآن"، فقال ابن مسعود: يا رسول الله اقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال: "إني أحب أن أسمع من غيري"، فقرأ عليه سورة النساء حتى إذا بلغ قوله تعالى: **{فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ شَهِيدًا} ٣** قال: "حسبك الآن"، قال ابن مسعود: فالتفت فإذا عيناه تذرفان" ٤، وقال صلى الله عليه وسلم: "إني لأعرف أصوات رفقة الأشعريين بالقرآن حين يدخلون بالليل وأعرف منازلهم من أصواتهم بالقرآن بالليل وإن كنت لم أر منازلهم حين نزلوا بالنهار" ٥.

والأخبار كثيرة تشهد على عناية الصحابة رضي الله عنهم بالقرآن الكريم وتلاوته، وحفظه وعلى حث الرسول عليه الصلاة والسلام لأصحابه على ذلك.

فلا عجب أن يكثر عدد حفاظ القرآن من الصحابة إذ حفظه في حياة الرسول -صلى الله عليه وسلم- الجم الغفير من الصحابة رضي الله عنهم.

فمن المهاجرين الذين حفظوا القرآن كله أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وطلحة، وسعد، وابن مسعود، وحذيفة، وسالم مولى أبي حذيفة، وأبو هريرة، وعبد الله بن عمر، وابن عباس، وعمرو بن العاص، وابنه عبد الله، ومعاوية، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن السائب، وعائشة، وحفصة، وأم سلمة^٦.

ومن الأنصار عبادة بن الصامت، وأبي بن كعب، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وفضالة بن عبيد، ومسلمة بن مخلد، وأبو الدرداء، وأنس بن مالك، وأبو زيد بن السكن.

"إشكال"

روى البخاري في صحيحه ثلاثة أحاديث:

الأول : عن قتادة قال سألت أنس بن مالك رضي الله عنه: من جمع القرآن على عهد النبي -صلى الله عليه وسلم؟ قال: أربعة، كلهم من الأنصار: أبي بن كعب، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبو زيد^١.

الثاني : عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: "مات النبي -صلى الله عليه وسلم- ولم يجمع القرآن غير أربعة: أبو الدرداء، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت وأبو زيد قال ونحن ورثناه"^٢.

الثالث : عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: "خذوا القرآن من أربعة: من عبد الله بن مسعود، وسالم، ومعاذ، وأبي بن كعب"^٣.

وقد يستدل بهذه الأحاديث على أن الذين يحفظون القرآن هم: عبد الله بن مسعود، وسالم بن معقل مولى أبي حذيفة، ومعاذ بن جبل، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت، وأبو زيد بن السكن، وأبو الدرداء.

وهذا يخالف ما هو معلوم أن الذين يحفظون القرآن من الصحابة جم غفير وليس محصورا بهذا العدد .

والجواب عن هذا الإشكال من وجوه :

الأول : أنه لا يراد بهذه الأحاديث لخصر وإنما يراد به ضرب المثل ،

ويشهد لهذا أن أنسا نفسه ذكر في حديث " أبي بن كعب " وفي حديث آخر " أبا الدرداء " فلو كان المراد لخصر لاتفقت الأسماء في الحديثين .

الثاني : أن المراد بالجمع الكتابة لا الحفظ .

الثالث : أن المراد بالجمع حفظه بوجوه القراءات كلها .

الرابع : أن المراد بالجمع تلقيه كله من فم الرسول صلى الله عليه وسلم .

الخامس: أن المراد أنهم هم الذين عرضوه على النبي - صلى الله عليه وسلم - واتصلت بنا أسانيدهم وأما من حفظه ولم يتصل بنا سنده فكثيرا .

قال المازري - رحمه الله تعالى - " وقد تمسك بقول أنس هذا جماعة من الملاحدة ، ولا متمسك لهم فيه ، فإننا لا نسلم حمله على ظاهره ، سلمناه ، ولكن من أين لهم أن الواقع في نفس الأمر كذلك ! سلمناه ، لكن لا يلزم من كون كل من الجم الغفير لم يحفظه كله ألا يكون حفظ مجموعهم الجم الغفير ، وليس من شرط التواتر أن يحفظ كل فرد جميعه ، بل إذا حفظ الكل ولو على التوزيع كفى " ٢ .

وقد توافرت الدواعي لحفظ الصحابة للقرآن الكريم: ومنها:

- ١- قوة الحافظة عندهم وسيلان الذهن وحدة الخاطر وفي التاريخ شواهد لذلك.
- ٢- أنهم كانوا أميين لا يعرفون القراءة ولا يحذقون الخط والكتابة وجعلهم هذا لا يعولون إلا على قوة الحافظة.
- ٣- تمكن الإيمان من قلوبهم -رضي الله عنهم- وحب الله سبحانه وتعالى وحب الرسول -صلى الله عليه وسلم- وحب كتابه مما جعلهم يقبلون على حفظ القرآن.
- ٤- بلاغة القرآن التي ملكت الأفئدة، وقد كانوا يتذوقون الكلام ويحفظون أجوده فلا عجب أن يقبلوا على حفظ القرآن.
- ٥- النصوص الكثيرة الواردة في الحث على حفظ القرآن والترهيب من نسيانه وهجره.
- ٦- تشريع قراءة القرآن في الصلاة والقيام به في الليل وهم أهل صلاة وقيام وغير ذلك من العوامل التي دفعتهم لحفظ القرآن حتى حفظه عدد كبير كما أشرنا ويكفي أنه قتل في بئر معونة نحو سبعين من حفاظ القرآن وقتل في معركة اليمامة مثلهم؛ مما يدل على كثرة حفاظ القرآن الكريم في عهد الصحابة -رضي الله عنهم- وأرضاهم وعلى تنافسهم في حفظ القرآن وتحفيظه وتعلمه وتعليمه
- مر بنا أن الصحابة -رضي الله عنهم- انتشروا في الأفاق الإسلامية والبلدان المفتوحة يُعَلِّمون الناس أمور دينهم، ويعقدون حلق التعليم والتدريس في مساجد تلك البلدان، وأقبل عليهم كثير من الناس يتحلقون حولهم، ويتلقون العلم منهم، وصار لبعض هذه المدارس شهرة كبيرة حملت كثيرًا من التابعين على الرحلة إليها، وتلقي العلم من أهلها، كمدرسة ابن مسعود -رضي الله عنه- في الكوفة، ومدرسة أبي بن كعب -[في المدينة، ومدرسة ابن عباس -رضي الله عنهما- في مكة، وغيرها من مدارس الصحابة، رضي الله عنهم.
- وكان الصحابة يُعَلِّمونهم القرآن الكريم ويحفظونهم إياه، ويفسرون لهم معانيه، ويبينون لهم أحكامه، وقد أقبل التابعون على هذه المدارس، فكثرت حفاظ القرآن الكريم، ولم يقتصرُوا على تلاوته، بل حفظوا أوجه قراءته، واشتهر عدد كبير من الحفاظ بالقراءة والرواية.
- وتجرد بعض التابعين -رحمهم الله تعالى- للعناية بضبط القراءات وإتقانها، ووضع القواعد لها والأصول حتى صاروا أئمة يُقْتَدَى بهم.

- حفظ القرآن الكريم في العصر الحديث:

أما في العصور الحديثة فما زالت المسيرة -والحمد لله- مستمرة يحفظ المسلمون القرآن في صدورهم مع تكالب الأحوال على المسلمين واضطراب المعيشة ومغريات الحضارة وتوافر الموانع، وانحسار الدوافع، وما زلنا نرى كثرة حفاظ القرآن الكريم ونجد إقبالاً لا يخطر ببال ولا يحلم بمثله أهل الكتاب.

فقد انتشرت مدارس تحفيظ القرآن الكريم العديدة وأنشئت معاهد للقراءات وكليات القرآن في العديد من الدول الإسلامية والحمد لله.

٨- خصائص جمع القرآن بمعنى حفظه في الصدور:

ولهذا النوع من الجمع مزايا وخصائص منها:

١- أن جمع القرآن بمعنى حفظه هو أول علم نشأ من علوم القرآن الكريم، وذلك أنه حين نزل الوحي على الرسول -صلى الله عليه وسلم- في غار حراء وجرى ما جرى تلا عليه الصلاة والسلام ما نزل عليه من القرآن على خديجة وذلك من حفظه فهو أول علم نشأ من علوم القرآن.

٢- أنه دائم لا ينقطع إن شاء الله تعالى، فقد حفظ الرسول -صلى الله عليه وسلم- القرآن وحفظه أصحابه والتابعون ومن بعدهم وما زال المسلمون يحفظونه إلى أن يأذن الله برفعه بخلاف جمعه بمعنى كتابته فقد مر بثلاث مراحل آخرها في عهد عثمان رضي الله عنه.

٣- أن الحفظ في الصدور خاص بالقرآن وليس هناك كتاب يحفظه أهله غير القرآن.

٤- أنه يجب على كل مسلم أن يحفظ من القرآن ما يؤدي به الصلوات بخلاف جمعه بمعنى كتابته وتدوينه فلا يجب على كل مسلم.

٥- الوعيد لمن حفظ شيئاً من القرآن ثم نسيه.

النوع الثاني: جمعه بمعنى كتابته وتدوينه:

جمع القرآن الكريم بهذا المعنى ثلاث مرات:

- الجمع الأول: في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم.

- الجمع الثاني: في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

- الجمع الثالث: في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه.

المراد بالجموع الثلاثة:

وقد يشكل على الذهن كيف يجمع الشيء الواحد ثلاث مرات فإذا كان جُمِعَ في عهد الرسول -صلى الله عليه وسلم- فكيف يجمع في عهد أبي بكر -رضي الله عنه- وإذا جمع في عهد أبي بكر ثانية فكيف يجمع ثالثة.

والجواب: أنه لا يراد بالجمع معناه الحقيقي في جميع المراحل. فالمراد بجمع القرآن في عهد الرسول - صلى الله عليه وسلم "كتابته وتدوينه" والمراد بجمع القرآن في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه "جمع في مصحف واحد". والمراد بجمع القرآن في عهد عثمان رضي الله عنه "نسخه" في مصاحف متعددة.

ويظهر بهذا أن الجمع بمعناه الحقيقي كان في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

وسنتحدث عن كل مرحلة من مراحل هذه الجمع

انتهت المحاضرة

إعداد : SHO5i

المحاضرة الرابعة بعنوان

جمع القرآن الكريم بمعنى كتابته

النوع الثاني: جمعه بمعنى كتابته وتدوينه:

جمع القرآن الكريم بهذا المعنى ثلاث مرات:

- الجمع الأول: في عهد الرسول ﷺ.
- الجمع الثاني: في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه.
- الجمع الثالث: في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه.

المراد بالجموع الثلاثة:

وقد يشكل على الذهن كيف يجمع الشيء الواحد ثلاث مرات فإذا كان جُمِعَ في عهد الرسول -ﷺ- فكيف يجمع في عهد أبي بكر -رضي الله عنه- وإذا جمع في عهد أبي بكر ثانية فكيف يجمع ثالثة.

والجواب: أنه لا يراد بالجمع معناه الحقيقي في جميع المراحل. فالمراد بجمع القرآن في عهد الرسول -صلى الله عليه وسلم- "كتابته وتدوينه" والمراد بجمع القرآن في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه "جمع في مصحف واحد". والمراد بجمع القرآن في عهد عثمان رضي الله عنه "نسخه" في مصاحف متعددة.

ويظهر بهذا أن الجمع بمعناه الحقيقي كان في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

وستحدث عن كل مرحلة من مراحل هذه الجمع.

أولاً: جمع القرآن بمعنى كتابته وتدوينه في عهد الرسول ﷺ:

كتاب الوحي:

اتخذ الرسول -ﷺ- عددًا من الصحابة كان إذا نزل عليه شيء من القرآن أمر أحدهم بكتابته وتدوينه ويعرف هؤلاء الصحابة بـ "كتاب الوحي" ومنهم:

لخفاء الأربعة، وزيد بن ثابت، وأبي بن كعب، ومعاوية بن أبي سفيان، ويزيد بن أبي سفيان وخالد بن سعيد بن العاصي وحنظلة بن الربيع، والزبير بن العوام وعامر بن فهيرة، وعمرو بن العاص، وعبد الله بن الأرقم، والمغيرة بن شعبة، وعبد الله بن رواحة، وخالد بن الوليد، وثابت بن قيس، وغيرهم.

صفة هذا الجمع:

وصف هذا الجمع صحابيان جليلان فقال زيد بن ثابت رضي الله عنه: "كنا عند رسول الله -ﷺ- نؤلف القرآن من الرِّقَاع" أي نجمعه لترتيب آياته من الرقاع، وروى عثمان بن عفان -رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ: كان إذا نزل عليه شيء يدعو بعض من كان يكتبه فيقول: "ضعوا هذه في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا". الحديث.

لم تكن أدوات الكتابة ميسرة للصحابة في ذلك الوقت فكانوا يكتبونه على كل ما تناله أيديهم من العُسْب "وهي جريد النخل".

- واللِّخَاف: "وهي الحجارة الرقيقة".
- والرقاع: "وهي القطعة من الجلد أو الورق".
- الكرانيف: "وهي أطراف العشب العريضة".
- والأقتاب: "جمع قَتَب وهي الخشب الذي يوضع على ظهر البعير ليركب عليه".
- والأكتاف: "جمع كَتَف وهي عظم عريض للإبل والغنم".

وكان كتاب الوحي -رضي الله عنهم- يضعون كل ما يكتبون في بيت رسول الله -ﷺ- وينسخون لأنفسهم منه نسخة.

مميزات جمع القرآن في عهد الرسول ﷺ:

1. ثبت في السنة نزول القرآن الكريم على سبعة أحرف ومما ورد في ذلك حديث عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- وفيه قال رسول الله ﷺ: "إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقروا ما تيسر منه" وقد كانت كتابة القرآن في عهد الرسول -ﷺ- على الأحرف السبعة.
2. أجمع العلماء على أن جمع القرآن في عهد رسول الله -ﷺ- كان مرتب الآيات أما ترتيب السور ففيه خلاف.
3. بعض ما كتب في عهد الرسول -ﷺ- نسخت تلاوته وظل مكتوباً حتى توفي رسول الله -ﷺ- وفي الحديث عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: كان فيما أنزل من القرآن: "عشر رضعات معلومات يحرمن" ثم نسخن "بخمس معلومات" فتوفي رسول الله -ﷺ- وهن فيما يقرأ من القرآن.
4. لم يكن القرآن الكريم في عهد الرسول الله -ﷺ- مجموعاً في مصحف واحد، بل كان مفرقاً في الرقاع والأكتاف والخلاف وغيرها؛ ولهذا قال زيد بن ثابت رضي الله عنه: "قبض النبي -ﷺ- ولم يكن القرآن جمع في شيء"، وقال أيضاً لما أمر بجمع القرآن في عهد أبي بكر رضي الله عنه: "فتتبع القرآن أجمعه من العشب والخلاف وصدور

ولعلك تسأل بعد هذا لماذا لم يجمع القرآن في عهد الرسول -ﷺ- في مصحف واحد؟ وقد أجاب العلماء رحمهم الله تعالى على ذلك، وذكروا أسباباً منها:

1. أن الله تعالى قد أمن نبيه عليه الصلاة والسلام من النسيان بقوله سبحانه وتعالى: ﴿سَنُفَرِّقُكَ فَلَا تَنْسَى، إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾، أي ما شاء أن يرفع حكمه بالنسخ فلا خوف إذن أن يذهب شيء من القرآن الكريم، وأما بعد وفاته صلى الله عليه وسلم فإن النسيان قد يقع فبادر المسلمون إلى جمعه في مصحف واحد.
2. قال الخطابي: "إنما لم يجمع ﷺ القرآن في المصحف لما يترقبه من ورود ناسخ لبعض أحكامه أو تلاوته فلما انقضى نزوله بوفاته ألهم الله الخلفاء الراشدين ذلك وفاء بوعده الصادق بضمان حفظه على هذه الأمة.

وقال الزركشي: "وإنما ترك جمعه في مصحف واحد؛ لأن النسخ كان يرد على بعض، فلو جمعه ثم رفعت تلاوة بعض لأدى إلى الاختلاف واختلاط الدين، فحفظه الله في القلوب إلى انقضاء زمان النسخ ثم وفق لجمعه الخلفاء الراشدين".

3. أن القرآن الكريم لم ينزل جملة واحدة، بل نزل منجماً في ثلاث وعشرين سنة.

4. أن ترتيب آيات القرآن وسوره ليس على حسب ترتيب نزوله،

ولو جمع القرآن في مصحف واحد حينذاك لكان عرضة للتغيير كلما نزل شيء من القرآن.

ولم يكن الصحابة -رضي الله تعالى عنهم- إذا اختلفوا في شيء من القرآن يرجعون إلى ما هو مكتوب بل كانوا يرجعون إلى الرسول -ﷺ- فيعرضون عليه قراءتهم ويسألونه عنها.

وبعد وفاة الرسول -ﷺ- ومقتل بعض القراء من الصحابة دعت الحاجة إلى جمع القرآن في مصحف واحد، فكان ذلك في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

ثانياً: جمع القرآن الكريم في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه:

سببه:

بعد وفاة الرسول -صلى الله عليه وسلم- ارتدت بعض قبائل العرب فأرسل أبو بكر -رضي الله عنه- خليفة الرسول -صلى الله عليه وسلم- الجيوش لقتال المرتدين وكان قوام هذه الجيوش هم الصحابة رضوان الله عليهم وفيهم حفاظ القرآن، وكانت حروب الردة شديدة قتل فيها عدد من القراء الذين يحفظون القرآن الكريم، فخشي بعض الصحابة أن يذهب شيء من القرآن بذهاب حفظته ١ فأراد أن يجمع القرآن في مصحف واحد بمحض من الصحابة.

وقصة ذلك رواها البخاري في صحيحه عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: أرسل إلي أبو بكر -مقتل أهل الإمامة- فإذا عمر بن الخطاب عنده قال أبو بكر رضي الله عنه: إن عمر أتاني فقال: إن القتل قد استحر ٢ يوم الإمامة بقراء القرآن، وإني أخشى أن يستحر القتل بالقراء بالموطن فيذهب كثير من القرآن، وإني أرى أن تأمر بجمع القرآن، قلت لعمر: كيف تفعل شيئاً لم يفعله رسول الله عليه وسلم. قال عمر: هذا والله خير، فلم يزل عمر يراجعني حتى شرح الله صدري لذلك، ورأيت في ذلك الذي كنت تكتب الوحي لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- فتتبع القرآن فاجمعه، فوالله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل علي مما أمرني به من جمع القرآن، قلت: كيف تفعلون شيئاً لم يفعله رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: هو والله خير فلم يزل أبو بكر يراجعني حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر رضي الله

عنهما، فتتبع القرآن أجمعه من العصب واللخاف وصدور الرجال حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري لم أجد ما مع أحد غيره: {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ} حتى خاتمة براءة، فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله ثم عند عمر حياته ثم عند حفصة بنت عمر رضي الله عنها".

تاريخ هذا الجمع:

هو كما جاء في الحديث بعد معركة الإمامة، وفي السنة الثانية عشرة من الهجرة.

أسباب اختيار زيد بن ثابت رضي الله عنه لهذا الجمع:

ترجع أسباب اختيار زيد بن ثابت لأمر منها:

1. أنه كان من حفاظ القرآن الكريم.
2. أنه شهد العرضة الأخيرة للقرآن الكريم، وقد روى البغوي عن أبي عبد الرحمن السلمي أنه قال: قرأ زيد بن ثابت عن رسول الله -ﷺ- في العام الذي توفاه الله فيه مرتين إلى أن قال عن زيد بن ثابت أنه: "شهد العرضة الأخيرة، وكان يقرئ الناس بها حتى مات، ولذلك اعتمده أبو بكر وعمر في جمعه، و ولاه عثمان كتبة المصاحب رضي الله عنهم أجمعين".
3. أنه من كتاب الوحي للرسول ﷺ.
4. خصوبة عقله، وشدة ورعه، وكمال خلقه، واستقامة دينه، وعظم أمانته ويشهد لذلك قول أبي بكر رضي الله عنه له: "إنك رجل شاب، عاقل، ولا تنهك وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ" وقوله نفسه رضي الله عنه: "فوالله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل علي مما أمرني به من جمع القرآن".

منهج زيد في هذا الجمع:

من المعلوم أن زيد بن ثابت رضي الله عنه كان يحفظ القرآن كله في صدره، وكان القرآن مكتوباً عنده ومع هذا فلم يعتمد على ما حفظه ولا على ما كتب بيده، وذلك أن عمله ليس جمع القرآن فحسب، وإنما التوثيق والتثبت فيما يكتب؛ ولهذا يقول الزركشي رحمه الله تعالى عن زيد:

"وتتبعه للرجال كان للاستظهار لا لاستحداث العلم" وقال ابن حجر رحمه الله تعالى: "وفائدة التتبع المبالغة في الاستظهار والوقوف عند ما كتود امتثالا ذلك فقد قام عمر في الناس فقال: "من كان تلقى من رسول الله -ﷺ- شيئاً من القرآن فليأتنا به".

وقد بين زيد نفسه المنهج الذي سلكه بقوله رضي الله عنه: "فتتبع القرآن أجمعه من العصب والخاف وصدور الرجال".

وعلى هذا فإن منهج زيد في جمع القرآن الكريم في عهد أبي بكر الصديق -رضي الله عنه- يقوم على أسس أربعة:

- الأول: ما كتب بين يدي رسول الله ﷺ.
 - الثاني: ما كان محفوظاً في صدور الرجال.
 - الثالث: أن لا يقبل شيئاً من المكتوب حتى يشهد شاهدان على أنه كتب بين يدي الرسول -ﷺ- قال السخاوي معناه: "من جاءكم بشاهدين على شيء من كتاب الله الذي كتب بين يدي رسول الله ﷺ".
- وقال ابن حجر العسقلاني رحمه الله تعالى: "وكان غرضهم أن لا يكتب إلا من عين ما كتب بين يدي النبي -ﷺ- لا من مجرد الحفظ".
- الرابع: أن لا يقبل من صدور الرجال إلا ما تلقوه من فم الرسول -ﷺ- فإن عمر رضي الله عنه ينادي: "من كان تلقى من رسول الله -ﷺ- شيئاً من القرآن فليأتنا به" ولم يقل من حفظ شيئاً من القرآن فليأتنا به.

بين يدي النبي ﷺ

وقد رسم أبو بكر -رضي الله عنه- لزيد المنهج لهذا الجمع فقال له ولعمر بن الخطاب رضي الله عنه: "اقعدوا على باب المسجد، فمن جاءكم بشاهدين على شيء من كتاب الله فاكتاباه،

وقد امتثالا ذلك فقد قام عمر في الناس فقال: "من كان تلقى من رسول الله -ﷺ- شيئاً من القرآن فليأتنا به".

مميزات جمع القرآن الكريم في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه:

1. جمع القرآن الكريم في هذا العهد على أدق وجوه البحث والتحري والإتقان على الوجه الذي أشرنا إليه في منهج الجمع.
2. أهمل في هذا الجمع ما نسخت تلاوته من الآيات.
3. أن هذا الجمع كان بالأحرف السبعة التي نزل عليها القرآن الكريم كما كان في الرقاع التي كتبت في عهد الرسول ﷺ.
4. أن هذا الجمع كان مرتب الآيات باتفاق واختلف العلماء في السور هل كانت مرتبة في هذا الجمع أم أن ترتيبها كان في عهد عثمان رضي الله عنه.
5. اتفق العلماء على أنه كتب نسخة واحدة من القرآن في هذا الجمع حفظها أبو بكر لأنه إمام المسلمين.
6. ظفر هذا الجمع بإجماع الأمة عليه وتواتر ما فيه.

مكانة هذا الجمع:

ظفر هذا الجمع باتفاق الصحابة - رضي الله عنهم - على صحته ودقته وأجمعوا على سلامته من الزيادة أو النقصان، وتلقوه بالقبول والعناية التي يستحقها حتى قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: "أعظم الناس أجرا في المصاحف أبو بكر فإنه أول من جمع ما بين اللوحين".

ومع هذا التصريح من علي - رضي الله عنه - فقد زعم قوم أن أول من جمع القرآن هو علي - رضي الله عنه - وقد رد عليهم الألوسي فقال: وما شاع أن عليا - كرم الله وجهه - لما توفي رسول الله - ﷺ - تخلف لجمعه. فبعض طرقه ضعيفة، وبعضها موضوعة، وما صح فمحمول كما قيل على الجمع في الصدر، وقيل: كان جمعا بصورة أخرى لغرض آخر، ويؤيده أنه

قد كتب فيه الناسخ والمنسوخ فهو ككتاب علم. ولهذا روي أن أول من جمعه عمر رضي الله عنه، كما روي أن أول من جمعه سالم مولى أبي حذيفة، أقسم أن لا يرتدي برداء حتى يجمعه وكل ذلك محمول على ما حمل عليه جمع علي - رضي الله عنه - بل ذكر ابن حجر وغيره أن جمع علي - رضي الله عنه - كان حسب ترتيب النزول وذكر النهاوندي - أحد مفسري الرافضة - "أن الكتاب الذي جمعه أمير المؤمنين - رضي الله عنه - كان فيه بيان شأن نزول الآيات. وأسماء الذين نزلت فيهم وأوقات نزولها وتأويل متشابهاتها وتعيين ناسخها ومنسوخها، وذكر عامها وخاصها، وبيان العلوم المرتبطة بها، وكيفية قراءتها".

وإن صح هذا - مع استحالة - فليس هو بجمع للقرآن وإنما هو كتاب في علوم القرآن. وإنما قلت مع استحالة؛ فلأن.

جمعه حسب ترتيب النزول غير ممكن فقد سأل محمد بن سيرين عكرمة مولى ابن عباس فقال: "قلت لعكرمة: ألفوه كما أنزل الأول فالأول؟ قال: لو اجتمع الإنس والجن على أن يؤلفوه هذا التأليف ما استطاعوا"

تسميته بالمصحف:

لم يكن "المصحف" يطلق على القرآن قبل جمع أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - وإنما عرف هذا الاسم بعد أن أتم زيد جمع القرآن فقد روى السيوطي عن ابن أثنّة في كتابه "المصاحف" أنه قال: "لما جمعوا القرآن فكتبوه في الورق قال أبو بكر: التمسوا له اسما فقال بعضهم السفر وقال

بعضهم المصحف فإن الحبشة يسمونه المصحف وكان أبو بكر أول من جمع كتاب الله وسماه المصحف".

خبر هذا المصحف:

بعد أن أتم زيد جمع القرآن في المصحف سلمه لأبي بكر الصديق -رضي الله عنه- فحفظه عنده حتى وفاته، ثم انتقل إلى أمير المؤمنين من بعده عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- وبعد وفاته انتقل المصحف إلى حفصة أم المؤمنين -رضي الله عنها- لأن عمر رضي الله عنه جعل أمر الخلافة من بعده شورى، فبقي عند حفصة إلى أن طلبه منها عثمان -رضي الله عنه- لنسخه بعد ذلك، ثم أعاده إليها -لما سيأتي- ولما توفيت حفصة رضي الله عنها أرسل مروان بن الحكم إلى أخيها عبد الله بن عمر -رضي الله عنهما- ساعة رجعوا من جنازة حفصة بعزيمة ليرسلن بها فأرسل بها ابن عمر إلى مروان فمزقها مخافة أن يكون في شيء من ذلك خلاف ما نسخ عثمان رضي الله عنه.

المحاضرة الخامسة بعنوان

تابع: جمع القرآن الكريم

سبب جمع القرآن في عهد عثمان بن عفان -رضي الله عنه-

سببه:

عندما اتسعت الفتوحات الإسلامية انتشر الصحابة -رضي الله عنهم- في البلاد المفتوحة يعلمون أهلها القرآن وأمور الدين، وكان كل صحابي يعلم بالحرف الذي تلقاه من الأحرف السبعة، فكان أهل الشام يقرءون بقراءة أبي بن كعب -رضي الله عنه- فيأتون بما لم يسمع أهل الشام فيكفر بعضهم بعضاً^١. وعندما اتجه جيش المسلمين لفتح "أرمينية" و"أذربيجان" كان الجنود من أهل العراق وأهل الشام فكان لشقاق والنزاع يقع بينهم ورأى حذيفة بن اليمان رضي الله عنه اختلافهم في القراءة وبعض ذلك مشوب باللحن مع إلف كل منهم لقراءته واعتياده عليها واعتقاده أنها الصواب وما عداها تحريف وضلال، حتى كفر بعضهم بعضاً فأفرع هذا حذيفة -رضي الله عنه- فقال والله لأركبن إلى أمير المؤمنين "يعني عثمان بن عفان رضي الله عنه"، وكان عثمان قد رأى نحو هذا في المدينة، فقد كان المعلم يعلم بقراءة والمعلم الآخر يعلم بقراءة فجعل الصبيان يلتقون فينكر بعضهم قراءة الآخر فبلغ ذلك عثمان -رضي الله عنه- فقام خطيباً وقال: "أنتم عندي تختلفون فيه فتلحنون فمن نأى عني من الأمصار أشد فيه اختلافًا وأشد لحناً، اجتمعوا يا أصحاب محمد، واكتبوا للناس إماماً"^١

"فلما جاء حذيفة إلى عثمان -رضي الله عنهما- وأخبره بما جرى تحقق عند عثمان ما توقعه، وقد روى البخاري في صحيحه قصة ذلك الجمع في حديث أنس بن مالك -رضي الله عنه- قال: "إن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان وكان يغازي أهل الشام في فتح "أرمينية" و"أذربيجان" مع أهل العراق فأفرع حذيفة اختلافهم في القراءة فقال حذيفة لعثمان: يا أمير المؤمنين أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى فأرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلني إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف ثم نردها إليك فأرسلت بها حفصة إلى عثمان.

تاريخ هذا الجمع:

كان ذلك في أواخر سنة 24 وأوائل سنة 25 كما قال ابن حجر العسقلاني رحمه الله تعالى

فكرة الجمع:

لما سمع عثمان -رضي الله عنه- ما سمع وأخبره حذيفة -رضي الله عنه- بما رأى استشار الصحابة فيما يفعل، فقد روى ابن أبي داود بإسناد صحيح -كما يقول ابن حجر- من طريق سويد بن غفلة قال: قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: "يا أيها الناس لا تغلوا في عثمان ولا تقولوا له إلا خيراً في المصاحف.. فوالله ما فعل الذي فعل في المصاحف إلا عن ملأ منا جميعاً، قال ما تقولون في هذه القراءة؟ فقد بلغني أن بعضهم يقول: إن قراءتي خير من قراءتك، وهذا يكاد أن

يكون كفراً، قلنا: فما ترى؟ قال: نرى أن نجمع الناس على مصحف واحد فلا تكون فرقة ولا يكون اختلاف. قلنا: فنعم ما رأيت.. قال علي: والله لو وليت لفعلت مثل الذي فعل.

اللجنة المختارة:

اختار عثمان -رضي الله عنه- أربعة لنسخ المصاحف هم: زيد بن ثابت، وعبد الله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام، وهؤلاء الثلاثة من قريش.

فقد سأل عثمان -رضي الله عنه- الصحابة: من أكتب الناس؟ قالوا: كاتب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- زيد بن ثابت قال: فأبي الناس أعرب؟ وفي رواية أفصح. قالوا: سعيد بن العاص، قال عثمان: فليمل سعيد، وليكتب زيد^٣. المنهج في هذا الجمع:

بعد أن اتفق عثمان مع الصحابة -رضي الله عنهم- أجمعين على جمع القرآن على حرف سلك منهجاً فريداً، وطريقاً سليماً، أجمعت الأمة على سلامته ودقته.

١- فبدأ عثمان رضي الله عنه بأن خطب في الناس فقال: "أيها الناس عهدكم بنبيكم منذ ثلاث عشرة وأنتم تمتازون في القرآن وتقولون: "قراءة أبي" و"قراءة عبد الله" يقول الرجل: "والله ما تقيم قراءتك!!" فأعزم على كل رجل منكم ما كان من كتاب الله شيء لما جاء به، وكان الرجل يجيء بالورقة والأديم فيه القرآن حتى جمع من ذلك كثرة، ثم دخل عثمان فدعاهم رجلاً رجلاً فناشدتهم، لسمعت رسول الله عليه وسلم وهو أملاه عليك؟ فيقول: نعم^١.

٢- وأرسل عثمان -رضي الله عنه- إلى أم المؤمنين حفصة بنت عمر -رضي الله عنهما- أن أرسلني إلينا بالمصحف ننسخها في المصاحف ثم نعيدها إليك، فأرسلت بها إليه، ومن المعلوم أن هذه الصحف هي التي جمعت في عهد أبي بكر الصديق -رضي الله عنه- على أدق وجوه البحث والتحري.

- ثم دفع ذلك إلى زيد بن ثابت والقرشيين الثلاثة وأمرهم بنسخ مصاحف منها وقال عثمان للقرشيين: "إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش، فإنما نزل بلسانهم^٢.

٤- إذا تواتر في آية أكثر من قراءة تكتب الآية خالية من أية علامة تقصر النطق بها على قراءة واحدة فتكتب برسم واحد يحتمل القراءتين أو القراءات فيها جميعاً مثل:

أ- {فَتَبَيَّنُوا} ٣ التي قرأت أيضاً "فتثبتوا"

ب- {نُنشِزُهَا} ١ قرأت أيضاً "ننشرها"^٢.

أما إذا لم يكن رسمها بحيث تحتمل القراءات فيها فتكتب في بعض المصاحف برسم يدل على قراءة، وفي مصاحف أخرى برسم يدل على القراءة الأخرى مثل:

أ- {وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ} ٣ هكذا تكتب في بعض المصاحف وفي بعضها "وأوصى"^٤.

ب- {وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ} ٥ بواو قبل السين في بعض المصاحف وفي بعضها بحذف الواو^٦.

وبعد الفراغ من نسخ المصاحف بعث عثمان بنسخ منها إلى الأمصار الإسلامية حيث نشط المسلمون في نسخ مصاحف منها للأفراد، وكان زيد بن ثابت في المدينة يتفرغ في رمضان من كل سنة لعرض المصاحف فيعرضون مصاحفهم عليه وبين يديه مصحف أهل المدينة^٧

٤- الاختصار على القراءات الثابتة المعروفة عن الرسول -صلى الله عليه وسلم- وإلغاء ما لم يثبت ٤.

٥- كان مرتب الآيات والسور على الوجه المعروف الآن.

قال الحاكم في المستدرک: "إن جمع القرآن لم يكن مرة واحدة، فقد جمع بعضه بحضرة الرسول -صلى الله عليه وسلم- ثم جمع بعضه بحضرة أبي بكر الصديق، الجمع الثالث هو في ترتيب السور وكان في خلافة أمير المؤمنين عثمان بن عثمان رضي الله عنهم أجمعين" ١. الفروق بين جمع أبي بكر وجمع عثمان رضي الله عنهما:

كان معنى "الجمع" ظاهرًا في جمع القرآن في عهد أبي بكر فقد كان القرآن مفرقًا فأمر بجمعه كما قال المحاسبي: "كان ذلك بمنزلة أوراق وجدت في بيت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فيها القرآن منتشر، فجمعها جامع، وربطها بخيط حتى لا يضيع منها شيء" ٢. إذاً فمعنى الجمع فيه ظاهر لا يحتاج إلى تفريق بينه وبين الجمع في عهد الرسول -صلى الله عليه وسلم- لكن الإشكال واللبس هو في الجمعين الثاني والثالث، إذ كيف يأمر عثمان بجمع القرآن وهو مجموع في عهد أبي بكر -رضي الله عنهما- ولذا فإن العلماء يولون التفريق بين جمع القرآن في عهد أبي بكر وجمعه في عهد عثمان عنايتهم لإزالة هذا اللبس، ويذكرون فروقًا.

قال القاضي أبو بكر في الانتصار: "لم يقصد عثمان قصد أبي بكر في جمع القرآن بين لوحين وإنما قصد جمعهم على القراءات الثابتة المعروفة عن النبي -صلى الله عليه وسلم- وإلغاء ما ليس كذلك" ٣ وقال ابن التين وغيره: "الفروق بين جمع أبي بكر وجمع عثمان أن جمع أبي بكر كان لخشية أن يذهب من القرآن شيء بذهاب حملته لأنه لم يكن مجموعًا في أي موضع واحد فجمعه في صحائف مرتبًا لآيات سوره على ما وقفهم عليه النبي -صلى الله عليه وسلم- وجمع عثمان كان لما كثر الاختلاف في وجوه القراءة حتى قرءوه بلغاتهم على اتساع اللغات؛ فأدى ذلك بعضهم إلى تخطئة بعض فحشي من تفاقم الأمر في ذلك فنسخ تلك الصحف في مصحف واحد مرتبًا لسوره، واقتصر من سائر اللغات على لغة قريش محتجًا بأنه نزل بلغتهم ١.

ومن هذين النصين نستطيع أن نستخلص أهم الفروق وهي:

١- أن الباعث لجمع القرآن في عهد أبي بكر -رضي الله عنه- خشية أن يذهب شيء من القرآن بذهاب حفظته، وذلك حين استحر القتل بالقراء في حروب الردة، أما جمعه في عهد عثمان -رضي الله عنه- فلكترة الاختلاف في وجوه القراءة.

٢- أن جمع أبي بكر -رضي الله عنه- على الأحرف السبعة، أما جمعه في عهد عثمان فقد كان على حرف واحد.

٣- أن جمع أبي بكر -رضي الله عنه- كان مرتب الآيات وفي ترتيب السور خلاف، أما جمع عثمان فقد كان مرتب الآيات والسور باتفاق.

- أن الجمع في عهد أبي بكر -رضي الله عنه- بمعنى الجمع في مصحف واحد وأما الجمع في عهد عثمان -رضي الله عنه- فبمعنى نسخه في مصاحف متعددة.

إنفاذ المصاحف:

بعد أن أتمت اللجنة نسخ المصاحف أنفذ عثمان إلى آفاق الإسلام بنسخ منها وأرسل مع كل مصحف من يوافق قراءته فأمر زيد بن ثابت أن يقرئ بالمدني وبعث عبد الله بن السائب مع المكي والمغيرة بن أبي شهاب مع الشامي وأبا عبد الرحمن السلمي مع الكوفي وعامر بن عبد القيس مع البصري وتلقى التابعون في كل قطر قراءة إمامهم وتفرغ قوم منهم لضبط القراءات حتى صاروا أئمة يرحل إليهم.

موقف الصحابة من هذا الجمع:

وبعد أن أنفذ عثمان المصاحف أمر بما سوى مصحفه أن يحرق وبعث "إلى أهل الأمصار إني قد صنعت كذا وكذا ومحوت ما عندي فامحوا ما عندكم".

وقد رضي الصحابة -رضي الله عنهم- ما صنع عثمان وأجمعوا على سلامته وصحته وقال زيد بن ثابت "فرايت أصحاب محمد يقولون: أحسن والله عثمان، أحسن والله عثمان".

وروى ابن أبي داود عن مصعب بن سعد قال: "أدركت الناس متوافرين حين حرق عثمان المصاحف فأعجبهم ذلك وقال: لم ينكر ذلك منهم أحد".

وروى سويد بن غفلة قال: قال علي -رضي الله عنه: لا تقولوا في عثمان إلا خيرًا فوالله ما فعل الذي فعل في المصاحف إلا عن ملأ منّا" وعند ابن أبي داود قال: قال علي في المصاحف "لو لم يصنعه عثمان لصنعتة".

ولم ينقل عن أحد من الصحابة خلاف أو معارضة لما فعل عثمان -رضي الله عنه- إلا ما روي من معارضة عبد الله بن مسعود وينبغي أن نعلم أن معارضته -رضي الله عنه- لم تكن بسبب حصول تقصير في الجمع أو نقص أو زيادة، وإنما جاءت معارضته لعدم تعيينه مع أعضاء لجنة النسخ للمصاحف، ولهذا قال "أعزل عن نسخ المصاحف وتولاها رجل والله لقد أسلمت وإنه لفي صلب رجل كافر" ١.

وروى الترمذي عن ابن شهاب قال: "فبلغني أن ذلك كرهه من مقالة ابن مسعود رجال من أفاضل أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم" ٢ وقد دافع أبو بكر الأنباري عن اختيار زيد بقوله: "ولم يكن الاختيار لزيد.. إلا أن زيدًا كان أحفظ للقرآن من عبد الله إذا وعاه كله ورسول الله -صلى الله عليه وسلم- حي، ولا ينبغي أن يظن جاهل أن في هذا طعنًا على عبد الله بن مسعود؛ لأن زيدًا إذا كان أحفظ للقرآن منه فليس ذلك موجبًا لتقدمه عليه؛ لأن أبا بكر وعمر رضي الله عنهما كان زيد أحفظ منهما للقرآن وليس هو خيرًا منهما ولا مساويًا لهما في الفضائل، والمناقب، وما بدا عن عبد الله بن مسعود من نكير فشيء نتجه الغضب، ولا يعمل به ولا يؤخذ به، ولا يشك في أنه رضي الله عنه قد عرف بعد زوال الغضب عنه حسن اختيار عثمان ومن معه من أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وبقي على موافقتهم وترك الخلاف لهم" ٣ وأكد ذلك الذهبي فقال: "وقد ورد أن ابن مسعود رضي وتابع عثمان والله الحمد" ٤ وقال ابن كثير: "وإنما روي عن عبد الله بن مسعود شيء من الغضب؛ بسبب أنه لم يكن ممن كتب المصاحف إلى أن قال.. ثم رجع ابن مسعود إلى الوفاق" ٥.

فإن قيل كيف جاز للصحابة ترك الأحرف الستة التي أمر الرسول -صلى الله عليه وسلم- قراءة القرآن بها واقتصروا على حرف واحد؟ قيل: إن أمره إياهم بذلك لم يكن أمر بإيجاب وفرض، وإنما كان أمر بإباحة ورخصة.. وإذا كان ذلك لم يكن القوم بتركهم بقية الأحرف

.. وإذا كان ذلك لم يكن القوم بتركهم بقية الأحرف

لتوكين ما عليهم نقله، بل كان الواجب عليهم من الفعل ما يؤدون به الواجب وهو أحد هذه الأحرف، فإذا حفظوه ونقلوه فقد فعلوا ما كلفوا به ١.

وقد علل ابن القيم -رحمه الله تعالى- جمع الناس على حرف واحد، فأحسن حيث قال: "فلما خاف الصحابة رضي الله عنهم على الأمة أن يختلفوا في القرآن ورأوا أن جمعهم على حرف واحد أسلم وأبعد من وقوع الاختلاف فعلوا ذلك ومنعوا الناس من القراءة بغيره، وهذا كما لو كان للناس عدة طرق إلى البيت، وكان سلوكهم في تلك الطرق يوقعهم في التفرق والتشتيت ويطمع فيهم العدو، فرأى الإمام جمعهم على طريق واحد، فترك بقية الطرق جاز ذلك، ولم يكن فيه إبطال لكون تلك الطرق موصلة إلى المقصود وإن كان فيه نهي عن سلوكه لمصلحة الأمة" ٢.

عدد المصاحف التي أمر عثمان رضي الله عنه بنسخها:
اختلف في عدد النسخ التي كتبها عثمان إلى خمسة أقوال:
١- قيل إنها أربع نسخ:

قال أبو عمرو الداني: "أكثر العلماء على أن عثمان بن عفان -رضي الله عنه- لما كتب المصحف جعله على أربع نسخ، وبعث إلى كل ناحية من النواحي بواحدة منهن، فوجه إلى الكوفة إحداهن وإلى البصرة أخرى وإلى الشام الثالثة، وأمسك عند نفسه واحدة ٣.

٢- قيل إنها خمس نسخ:
قال السيوطي: "المشهور أنها خمسة" ٤.

- قيل: إنها سبع نسخ:

فقد روى ابن أبي داود عن أبي حاتم السجستاني قال: لما كتب عثمان المصاحف حين جمع القرآن كتب سبعة مصاحف فبعث واحدا إلى مكة وآخر إلى الشام وآخر إلى اليمن، وآخر إلى البحرين، وآخر إلى البصرة، وآخر إلى الكوفة، وحبس بالمدينة واحدا ١.
وقيل: إنها ثمانية وقيل إنها ستة.
خبر هذه المصاحف:

ذكر بعض المؤرخين القدامى رؤيتهم لبعض هذه المصاحف ومن ذكر رؤيته لبعضها ابن جبير "ت ٦١٤هـ" حين زار جامع دمشق رأى في الركن الشرقي من المقصورة الحديثة في المحراب خزانة كبيرة فيها مصحف من مصاحف عثمان -رضي الله عنه- وهو المصحف الذي وجه به إلى الشام كما قال ٢ وقد زار المسجد أيضا ابن بطوطة "ت ٧٧٩هـ" فقال: "وفي قبلة المسجد المقصورة العظمى التي يؤم فيها إمام الشافعية وفي الركن الشرقي منها إزاء المحراب خزانة كبيرة فيها المصحف الكريم الذي وجه أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه إلى الشام ٣ ورأى النسخة نفسها ابن كثير "٧٧٤هـ" رحمه الله تعالى حيث قال: "وأما المصاحف العثمانية الأئمة فأشهرها اليوم الذي في الشام بجامع دمشق عند الركن الشرقي المقصورة المعمورة بذكر الله، وقد كان قديما في طبرية، ثم نقل منها إلى دمشق في حدود ثمانين عشرة وخمس مائة، وقد رأيته كتابا جليلا عظيما ضخما بخط حسن مبين قوي بحبر محكم في رق أظنه من جلود الإبل والله أعلم ٤

كما ذكر ابن بطوطة أنه رأى في مسجد علي رضي الله عنه في البصرة المصحف الذي كان عثمان - رضي الله عنه - يقرأ فيه لما قتل، وأثر تغيير الدم في الورقة التي فيها قوله تعالى: {فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} ١، ٢ ويبدو كذلك أن ابن الجزري وابن فضل الله العمري قد رأيا كلاهما هذا المصحف الشامي نفسه ٣. ورأى ابن الجزري مصحفًا في مصر ٤. ويبدو - كذلك - أن المصحف الشامي ظل محفوظًا في الجامع الأموي إلى أوائل القرن الرابع عشر الهجري حيث قيل: إنه احترق، فقد قال الأستاذ محمد كرد علي في حديثه عن الجامع الأموي: حتى إذا كانت سنة ١٣١٠ هـ. سرت النار إلى جذوع سقوفه فالتهمت بها في أقل من ثلاث ساعات فدثر آخر ما بقي من آثاره، ورياشه وحرقت فيه مصحف كبير بالخط الكوفي كان جيء به من مسجد عتيق في بصرى، وكان الناس يقولون: إنه المصحف العثماني ٥ وقيل: إن هذا المصحف أمسى زمنًا في حوزة قياصرة الروس في دار الكتب في لينينجراد ثم نقل إلى إنجلترا ٦. كما أن هناك مصاحف أثرية تحتويها خزائن الكتب والآثار في مصر، ومنها المصحف المحفوظ في خزائن الآثار بالمسجد الحسيني، ويقال عنها إنها مصاحف عثمانية، وقد شكك كثيرًا الشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني بهذا، معللاً بأن فيها زركشة ونقوشًا موضوعة كعلامات للفصل بين السور ولبیان أعشار القرآن، ومعلوم أن المصاحف العثمانية كانت خالية من كل هذا ٧. وفقد هذه المصاحف لا يقلل من ثقتنا اليقينية بما تواتر واستفاض نقله من المصاحف ثقة عن ثقة وإمامًا عن إمام، وسواء وجدت هذه المصاحف أو فقدت، فإننا على يقين تام لا يزاوله شك ولا يعتريه ريب بسلامة هذه المصاحف من الزيادة أو النقصان

وقد اعترف بذلك غير المسلمين من العلماء المحققين يقول المستشرق موير: "إن المصحف الذي جمعه عثمان قد تواتر انتقاله من يد ليد حتى وصل إلينا بدون أي تحريف، ولقد حفظ بعناية شديدة بحيث لم يطرأ عليه أي تغيير يذكر، بل نستطيع أن نقول: إنه لم يطرأ عليه أي تغيير على الإطلاق في النسخ التي لا حصر لها، والمتداولة في البلاد الإسلامية الواسعة، فلم يجد إلا قرآن واحد لجميع الفرق الإسلامية

النوع الثالث: جمعه بمعنى تسجيله صوتيًا:

من المعلوم أن للتلاوة أحكامًا ينبغي أن يأخذ بها تالي القرآن الكريم كالقلقلة والروم والإشمام، والإخفاء، والإدغام، والإقلاب، والإظهار، ونحو ذلك. وليس من السهل بل قد تتعذر كتابة مثل هذا. ولهذا قرر العلماء - رحمهم الله تعالى - أنه لا يصح التعويل على المصاحف وحدها، بل لا بد من التلقي عن حافظ متقن، وكانوا يقولون: "من أعظم البلية تشيخ الصحيفة" ١. ويقولون: "لا تأخذوا القرآن من مصحفي ولا العلم من صحفي" ٢. وهو الذي يعلم الناس وينظر إلى رسم المصحف. وكان الشافعي - رحمه الله تعالى - يقول: "من تفقه من بطون الكتب ضيع الأحكام" ١. بل إن أعلام حفاظ القرآن يميزون الحفظ بالتلقي، فهذا ابن مسعود - رضي الله عنه - يقول: "والله لقد أخذت من في رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بضعة وسبعين سورة" ٢ وبين عمن أخذ باقيه فيقول في رواية أخرى: "وأخذت بقية القرآن عن أصحابه" ٣ ولإدراكه - رضي الله عنه - مكانة التلقي بالمشافهة كان إذا سئل عن سورة لم يكن تلقاها عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - صرح لهم بذلك، ودلهم على من تلقاها بالمشافهة عن الرسول - صلى الله عليه وسلم - فعن معد يكرب قال: أتينا عبد الله فسألناه أن يقرأ "طسم" المائتين، فقال: ما هي معي، ولكن عليكم من أخذها من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - خباب بن الأرت، قال: فأتينا خباب بن الأرت، فقرأها علينا ٤.

وما قاله ابن مسعود وغيره من أعلام الحفاظ في وجوب التلقي للقرآن مشافهة لم يبتدعوه من عند أنفسهم، وإنما أخذوه من سنة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقد كان النبي - صلى الله عليه وسلم - نفسه يتعلم القرآن من جبريل عليه السلام ويشافهه به مشافهة، ويعارضه القرآن في كل عام في شهر رمضان، وعارضه عام وفاته بالقرآن مرتين، والصلوات الخمس يجهر في ثلاث منها، وكذا في صلاة الجمعة، والاستسقاء، والخسوف، والكسوف، والتراويح، والعيد، وفي هذا إشارة إلى تعلم الناس للتلاوة الصحيحة في الصلاة الجهرية ثم تطبيقها في الصلاة السرية. وكان الرسول - صلى الله عليه وسلم - يبعث القراء إلى من يدخل في الإسلام لتعليمهم التلاوة وكان بإمكانه - صلى الله عليه وسلم - أن يكتب لهم، واقتدى بسنته من بعده الخلفاء الراشدون فأرسلوا إلى أهل البلدان المفتوحة قراء يعلمونهم القرآن، ولما نسخ عثمان المصاحف أرسل مع كل مصحف قارئاً يعلم الناس عليه. ولا شك أن هذا دليل قاطع على أن من أحكام القراءة ما لا يمكن إتقانه إلا بالتلقي الشفهي. ولم يكن من وسيلة لتحقيق ذلك إلا عن طريق القراء وقد جدت في العصر الحديث وسائل وآلات تسجل الصوت، ثم تعيده. ولا شك أن هذه الآلات والاستفادة منها في نشر القرآن الكريم وبثه في العالم الإسلامي خاصة في البلدان التي تفتقد المعلم الضابط من خير الوسائل لحفظه وتعليمه. وقد أدرك هذا الأمر بعض الغيورين على الإسلام والحريصين على نشره فتداعوا لجمع القرآن في أشرطة صوتية كما جمع على الورق في المصحف.

وتبنت الجمع الجمعية العامة للمحافظة على القرآن الكريم بمصر وكان ذلك سنة ١٣٧٩ هـ باقتراح من رئيسها الأستاذ لبيب السعيد، وقد اتفقوا على تسمية المشروع بـ "المصحف المرتل" أو **تعريف المصحف المرتل:** أما المصحف: فمثلثة الميم، والأصل والأشهر الضم، وهو مأخوذ من "أصحف" أي جعلت فيه الصحف ١.

واصطلاحاً: هو مجموعة صحائف القرآن مرتبة الآيات والصور على الوجه الذي تلقته الأمة الإسلامية من النبي صلى الله عليه وسلم. والفرق بين المصحف والقرآن أن المصحف اسم لمجموع الصحائف المدون فيها القرآن، أما القرآن الكريم فهو الألفاظ ذاتها.

وأما المرتل لغة: فمأخوذ من رتل الثغر، إذا استوى نباته، وحسن تنزيده، وكان مُفْلِجاً. واصطلاحاً: القراءة بتؤدة واطمئنان وإخراج كل حرف من مخرجه مع إعطائه حقه ومستحقه ومع تدبر المعاني، وقيل هو رعاية مخارج الحروف، وحفظ الوقوف.

والترتيل أفضل مراتب القراءة الأربع وهي:

١- التحقيق: وهو أكثرها اطمئناناً وأكثر ما يستعمل في التعليم.

٢- الترتيل: القراءة بتؤدة واطمئنان.

٣- التدوير: وهي مرتبة بين الترتيل والحدرد.

٤- الحدرد: وهو الإسراع بالقراءة مع مراعاة الأحكام.

المراد به:

المصحف المرتل هو التسجيل المسموع للقرآن الكريم.

أدواته:

أجهزة التسجيل الحديثة وأشرطته وأسطواناته ونحوها.

سببه:

أما بواعث التفكير في الجمع الصوتي للقرآن الكريم فكثيرة منها:

١- اقتضاء المحافظة على القرآن الكريم وذلك عن طريق:

- أ- تعليم النطق الصحيح الذي لا محيص عنه لطالب القرآن والذي بغیره لا يؤمن التصحيف.
- ب- المحافظة على القراءات التي نزل بها القرآن وأجمع عليها المسلمون وثبت تواترها.
- ج- المنع من القراءة بالشواذ التي تعلق بها أفراد من القراء.
- ٢- تيسير تحفيظ القرآن الكريم وتعليمه.

- أ- لأن المصاحف المرتلة نماذج صوتية ممتازة للترتيل الصحيح.
- ب- لأنها تيسر القرآن للحفظ والتعليم خاصة في البلدان التي تفتقد المعلم الضابط.
- ج- لأنها طُبِّ اختلافاً الرسم العثماني عن الرسم الإملائي المعروف.
- ضرورة الذود عن القرآن الكريم ضد الطاعنين عليه وضد كل محاولة لتحريفه، وكل عقبة توضع أمام وحدة أتباعه أو أمام نشره وتوزيعه بين المسلمين وذلك بأن ييث في الإذاعات ونحوها.
- ٤- معاضدة المصحف العثماني الذي أجمع المسلمون عليه.
- ٥- درء أي تحريف عن القرآن الكريم.
- ٦- نشر لغة القرآن الكريم وتوطيد الوحدة بين المسلمين.
- اريخ المصحف المرتل:**

عقد أول اجتماع في الجمعية العامة للمحافظة على القرآن الكريم برئاسة الأستاذ لبيب السعيد لدراسة الموضوع في مساء ١٤ / رمضان / ١٣٧٨ هـ في القاهرة وتمت الموافقة عليه ووضعت الشروط والمواصفات.

بدء الطبع:

لاقى المشروع في بدايته عقبات كثيرة مادية وعلمية وغيرها، وقد تجاوز بحمد الله كل هذا، وبدأ الطبع لأول مرة سنة 1379 هـ في ذي القعدة، وكانت الطبعة الأولى في المحرم من عام 1381 هـ، وذلك بقراءة الشيخ محمود خليل الحصري برواية حفص عن عاصم، فأعقب هذا سنة 1382 هـ تسجيل قراءة أبي عمرو برواية الدوري.

كيفية التسجيل:

لم يكن التسجيل شيئاً هيناً فمع امتياز القارئ وكونه قد أصبح آنئذ شيخ المقارئ المصرية، فقد كانت اللجنة تستوقفه كثيراً ليعيد التسجيل على النحو النموذجي المطلوب.

القراء وهم:

1. محمود خليل الحصري ويقرأ برواية حفص عن عاصم.
2. مصطفى المَلَواني ويقرأ برواية خلف عن حمزة.
3. عبد الفتاح القاضي ويقرأ برواية ابن وردان عن أبي جعفر.
4. فؤاد العروسي، ومحمد صديق المنشاوي، وكامل يوسف البهيمي برواية الدوري عن أبي عمرو. ولم يتم تسجيل شيء لغير الحصري.

مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف:

وقد أدركت حكمة المملكة العربية السعودية -وفقها الله تعالى إلى كل خير- الحاجة الماسة للعناية بطباعة المصحف وتسجيله، فأنشأت "مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف" وتم افتتاحه في السادس من شهر صفر عام 1405 **ومن أهداف هذا المجمع:**

1. طباعة المصحف الشريف:

طباعة تنأى به عن الأخطاء المطبعية، حيث أنشأت مطبعة تعد من أضخم المطابع في العالم وأحدثها. ويسمى المصحف الذي تصدره "مصحف المدينة النبوية" وتبلغ طاقة المطبعة ثلاثين مليون نسخة سنوياً أي بمعدل مصحف كامل كل "ثانية" بدون توقف.

2. ترجمة معاني القرآن الكريم إلى اللغات المختلفة:

وقد أصدر المجمع حتى نهاية رجب عام 1423 هـ أربعين ترجمة لمعاني القرآن الكريم

- تسجيل القرآن الكريم:

يضم المجمع أستديو للتسجيلات الصوتية، مجهزاً بأحدث الآلات والمعدات ذات التقنية العالية، حيث يتم تسجيل تلاوة القرآن الكريم بأصوات كبار القراء بالملكة والعالم الإسلامي تحت إشراف لجنة من كبار العلماء تراقب أعمال التسجيل. ويسعى المجمع في خطته المستقبلية إلى إنتاج إصدارات صوتية لترجمة معاني القرآن الكريم باللغات المختلفة. وتبلغ الطاقة الإنتاجية من أشرطة الكاسيت في المجمع أكثر من مليونين وأربع مائة ألف شريط سنوياً.

وحتى نهاية رجب عام ١٤٢٣ هـ تم تسجيل القرآن الكريم كاملاً برواية حفص عن عاصم بأصوات كل من:

١- الشيخ علي بن عبد الرحمن الحذيفي إمام المسجد النبوي الشريف.

٢- الشيخ محمد أيوب محمد يوسف.

٣- الشيخ عبد الله بن علي بصفر.

٤- الشيخ إبراهيم الأخضر علي القيم.

٥- الدكتور عماد بن زهير حافظ.

كما تم تسجيل القرآن الكريم كاملاً بصوت الشيخ علي الحذيفي برواية قالون عن نافع. وتم تسجيل معاني القرآن الكريم مترجمة إلى اللغة الأورمية وهناك خطة لتسجيل معاني القرآن الكريم بلغات أخرى.

٤- الوفاء باحتياجات الحرمين الشريفين والمساجد والعالم الإسلامي من الإصدارات الخاصة بالقرآن الكريم.

٥- خدمة السنة والسيرة النبوية الشريفة.

وذلك بجمع وحفظ الكتب والمخطوطات والوثائق والمعلومات المتعلقة بالسنة والسيرة وإعداد موسوعة في الحديث النبوي إلى جانب ترجمة بعض أمهات كتب السنة والسيرة.

٦- إجراء البحوث والدراسات المتعلقة بالقرآن والسنة

المحاضرة السادسة بعنوان

ترتيب سور القرآن وآياته

أولا ترتيب السور

وهذا مبحث مهم من المباحث الجلية، أولاه العلماء اهتمامهم وعنايتهم وزادت قيمته ومكانته حين ظهر الاتجاه الحديث في الدراسات القرآنية بتناول السور القرآنية مستقلة بناء على الوحدة الموضوعية، وأن كل سورة ذات هدف معين وغرض أساس أنزلت لأجله، وأكدوا على هذا المعنى باعتباره مدخلاً لفهم معانيها وكشف أسرارها وحكمها، ثم بنوا على ذلك الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم وبيان المناسبات بين الآيات والسور.

وتقسيم القرآن إلى سور وآيات من خصائصه التي لا يشاركه فيها كتاب آخر قال الجاحظ: "سمى الله كتاباً اسمه مخالفاً لما سمي العرب كلامهم على الجمل والتفصيل سمي جملة قرآنًا كما سموا ديوانًا، وبعضه سورة كقصيدة، وبعضها آية كالبيت وآخرها فاصلة كقافية"

أولاً- سور القرآن الكريم:

السور: جمع سورة، وفي نطق "السورة" لغتان:

1. أولاهما:

"السورة" بالهمزة مشتقة من "أسار" أي أبقى "والسور" البقية التي تبقى من شرب الشارب في الإناء، وسميت سورة كأن السورة بقية جملة القرآن وقطعة منه.

2. ثانيهما :

"السورة" بدون همز ومعناها في اللغة: المنزلة والشرف وما طال من البناء وحسن، والعلامة، وسميت السورة سورة لارتفاعها وشرفها وكونها علامة على صدق من جاء بها، ودليلاً على أن هذا القرآن من عند الله، وهي تشبه السور من وجهين:

- الأول: أن السور له علو حسي والسورة لها علو معنوي.
- الثاني: أن السور يقوم بناؤه على لبنات بعضها فوق بعض والسورة يقوم بناؤها على آيات يتبع بعضها بعضاً.

أما في الاصطلاح: فهي "طائفة مستقلة من آيات القرآن ذات مطلع ومقطع

طريق معرفة السورة: معرفة سور القرآن الكريم من حيث بداية كل سورة ونهايتها توقفي لا مجال للاجتهاد فيه.

عدد سور القرآن:

قال الزركشي رحمه الله تعالى: "اعلم أن عدد سور القرآن العظيم باتفاق أهل الحل والعقد مائة وأربع عشرة سورة كما هي في المصحف العثماني، أولها الفاتحة وآخرها الناس، وقال مجاهد: وثلاث عشرة بجعل الأنفال والتوبة سورة واحدة لاشتباه الطرفين وعدم البسملة، ويرده تسمية النبي -ﷺ- كلا منهما"1.

أسماء السور:

تنقسم سور القرآن من حيث تعدد الاسم وعدمه إلى ثلاثة أقسام:

- الأول: ما له اسم واحد وهو أكثر سور القرآن مثل: النساء، والأعراف، الأنعام، مريم، وغيرها.
- الثاني: ما له أكثر من اسم، ويشمل هذا النوع سورا لها اسمان كسورة "محمد" ﷺ حيث تسمى "القتال" وسورة "الجاثية" تسمى "الشرعية" وسورة "النحل" تسمى "النعم" لما عدد الله فيها من النعم على عباده.
- ويشمل سورا لها ثلاثة أسماء مثل "المائدة" وتسمى "العقود" و"المنقذة" ومثل سورة غافر وتسمى "الطَّوْل" و"المؤمن".
- ويشمل سورا لها أكثر من ثلاثة أسماء مثل سورة التوبة ومن أسمائها "براءة" و"الفاضحة" و"الحافرة" وقال حذيفة: هي سورة "العذاب" وقال ابن عمر: كنا ندعوها "المشققة" وقال الحارث بن يزيد: كانت تدعى "المبعثرة" ويقال لها: "المسورة" ويقال لها: "البَحْوث".
- وكسورة الفاتحة فقد ذكر السيوطي لها خمسة وعشرين اسما منها "أم الكتاب" "أم القرآن" و"السبع المثاني" و"الصلاة" و"الحمد" و"الوافية" و"الكنز" و"الشافية" و"الشفاء" و"الكافية" و"الأساس".
- الثالث: أن تسمى عدة سور باسم واحد:
- ومن ذلك تسمية البقرة وآل عمران بـ "الزهرابين" وتسمية سورتي الفلق والناس بـ "المعوذتين" وتسمية السور المبدوءة بـ "حم" بـ "الحوامي"

مصدر التسمية:

وفي سورة الفاتحة خلاف فقيل من أوله وقيل من المفضل ٢.

ترتيب السور:

للعلماء في ترتيب السور في القرآن الكريم ثلاثة أقوال:

الأول: أن ترتيب السور على ما هو عليه في المصحف الآن توقيفي وأنه لم توضع سورة في مكانها إلا بأمر من الرسول -صلى الله عليه وسلم- عن جبريل عليه السلام عن ربه عز شأنه كترتيب الآيات سواء بسواء.

قال أبو بكر الأنباري: "اتساق السور كاتساق الآيات والحروف كله عن النبي -صلى الله عليه وسلم- فمن قدم سورة أو أخرها فقد أفسد نظم القرآن" ١.

وقال الكرماني في البرهان: "ترتيب السور هكذا هو عند الله في اللوح المحفوظ على هذا الترتيب" ٢. وقال الطيبي: "أنزل القرآن أولا جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا ثم نزل مفردا على

حسب المصالح، ثم أثبت في المصاحف على التأليف والنظم المثبت في اللوح المحفوظ" ١.

وقال أبو جعفر النحاس: "إن تأليف السور على هذا الترتيب من رسول الله صلى الله عليه وسلم" ٢.

وقال ابن الحصار: "ترتيب السور ووضع الآيات موضعها إنما كان بالوحي" ٣. وغير هؤلاء من العلماء ومن أدلتهم:

١- إجماع الصحابة -رضي الله عنهم- على ترتيب السور في مصحف عثمان رضي الله عنه ولو كان ترتيبه بالاجتهاد لتمسك أصحاب المصاحف المخالفة في الترتيب بمصاحفهم.

٢- قال ابن حجر العسقلاني -رحمه الله تعالى: "ومما يدل على أن ترتيب المصحف كان توقيفياً ما أخرجه أحمد وأبو داود وغيرهما عن أوس بن أبي أوس حذيفة الثقفي قال: كنت في الوفد الذين أسلموا من ثقيف.. وفيه.. فسألنا أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قلنا: كيف تحزبون القرآن؟ قالوا: نحزبه ثلاث سور، وخمس سور، وسبع سور، وتسع سور، وإحدى عشرة، وثلاث عشرة، وحزب المفصل من "ق" حتى نختتم". ثم قال ابن حجر: "فهذا يدل على أن ترتيب السور على ما هو في المصحف الآن كان في عهد النبي صلى الله عليه وسلم" ٤.

وإذا جمعت أعداد السور المذكورة هكذا $3+5+7+9+11+13$ كان المجموع 48 سورة قال الزركشي: "وحينئذ فإذا عدت ثمانين وأربعين سورة كانت التي بعدهن سورة "ق". وهذا يدل على أن السور كانت مرتبة في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم.

٣- قال السيوطي رحمه الله تعالى: "ومما يدل على أنه توقيفي كون الحواميم رتبت ولاءً "يعني متواليه" وكذا الطواسين، ولم ترتب المسبحات ولاء، بل فصل بين سورها وفصل بين "طسم" الشعراء و"طسم" القصص بـ "طس" مع أنها أقصر منهما، ولو كان الترتيب اجتهاداً لذكرت المسبحات ولاء، وأخرت "طس" عن القصص".

القول الثاني: أن ترتيب السور اجتهاد من فعل الصحابة رضي الله عنهم.

وهذا قول جمهور العلماء، قال ابن فارس: جمع القرآن على ضربين: تأليف السور كتقديم السبع الطوال وتعقيبها بالمتين فهذا هو الذي تولته الصحابة وأما الجمع الآخر وهو جمع الآيات في السور فهو توقيفي تولاه النبي -ﷺ- كما أخبر به جبريل عن أمر ربه. ومما استدلوا به على ذلك.

١- اختلاف ترتيب السور في مصاحف الصحابة قبل أن يجمع القرآن، فلو كان توقيفياً لاتفقت مصاحفهم كما اتفقت في ترتيب الآيات، فقد كان مصحف علي مرتباً على النزول وأول مصحف ابن مسعود البقرة، ثم النساء، ثم آل عمران، ومصحف أبي الفاتحة، ثم البقرة، ثم النساء، ثم آل عمران.

٢- ما رواه مسلم في صحيحه عن حذيفة رضي الله عنه أن النبي -ﷺ- صلى بالبقرة، ثم النساء ثم بآل عمران في ركعة. قال عياض: هو دليل لكون ترتيب السور وقع باجتهاد الصحابة حين كتبوا المصحف.

القول الثالث: أن ترتيب بعض السور كان توقيفياً وبعضها كان باجتهاد الصحابة:

قال الزركشي: مال ابن عطية إلى أن كثيراً من السور كان قد علم ترتيبها في حياته -ﷺ- كالسبع الطوال والحواميم والمفصل وأن ما سوى ذلك يمكن أن يكون قد فوض الأمر فيه إلى الأمة بعده، وقال أبو جعفر بن الزبير الآثار تشهد بأكثر مما نص عليه ابن عطية ويبقى منها قليل يمكن أن يجري فيه الخلاف.

مناقشة الأدلة:

- ١- استدل القائلون بالتوقيف في ترتيب السور بإجماع الصحابة على ترتيب عثمان -رضي الله عنه- وهذا لا يدل على ما ذهبوا إليه، لأن إجماعهم على ترتيب عثمان لا يشترط له أن يستند إلى التوقيف عن الرسول -صلى الله عليه وسلم- فقد وافقوا عثمان على هذا الترتيب توحيداً لكلمة الأمة وقطعاً لأسباب الاختلاف كما وافقوا على الاختصار على حرف واحد.
- وأما استدلال السيوطي فإن ما أورده لا يلزم منه أن ترتيب السور توقيفي فعدم ترتيب المسبحات ولاء قد يكون لمراعاة مناسبات أخرى أهم من مناسبة فواتح السور، ولهذا مال السيوطي نفسه إلى رأي آخر.
- ٢- وأما القائلون بأن الترتيب كان كله بطريق الاجتهاد، فإن من أدلتهم اختلاف ترتيب السور في مصاحف الصحابة ولا يصلح هذا دليلاً على ما ذهبوا إليه فقد يكون ترتيب الصحابة قبل أن يعلموا بالتوقيف فلما بلغهم ذلك رجعوا عن ترتيب مصاحفهم.
- وأما استدلالهم بأن الرسول -صلى الله عليه وسلم- قد صلى بالبقرة والنساء وآل عمران في ركعة فلا يدل على ما ذهبوا إليه كما قال السيوطي، وعلل ذلك بقوله: "لأن ترتيب السور في القراءة ليس بواجب ولعله فعل ذلك لبيان الجواز" ١.
- ٣- وأما الرأي الثالث فإنه يستند إلى أدلة الرأي الأول وهو أن ترتيب السور توقيفي أما القسم الاجتهادي فإن أدلته ضعيفة لا تستند إلى دليل قوي.
- الرأي الرابع:
- إن استعراض الأدلة يوقفنا على ثبوت التوقيف في ترتيب أكثر سور القرآن الكريم وما لم يرد دليل على ترتيبه لا يعني أنه رتب بطريق الاجتهاد، فقد يكون ترتيبه بدليل لم يصل إلينا.
- وعلى هذا فإن الرأي الرابع أن ترتيب سور القرآن الكريم كترتيب آياته بالتوقيف عن الرسول -صلى الله عليه وسلم- عن جبريل عليه السلام عن ربه سبحانه وتعالى مع ما في أدلة هذا الرأي من الاحتمال كما ذكر إلا أنه أقوى الآراء.
- الموقف من هذا الترتيب:
- وعلى كل حال ومهما يكن من أمر سواء أكان هذا الترتيب الذي نجده في المصاحف بطريق التوقيف أم بطريق الاجتهاد، ثم أجمع الصحابة عليه، ومضت الأمة على قبوله، فيجب التمسك به والإعراض عن الدعوات الزائفة لإعادة ترتيب المصاحف حسب النزول أو الموضوع أو غير ذلك؛ لأن في ترتيب سوره معاني لا تقل عن معاني الترتيب في آياته، جد كثير من العلماء في استنباطها وتحصيلها. فضلاً عن مخالفة الإجماع وما في ذلك من مفسد عظيمة.
- أما ترتيب السور في التلاوة فليس بواجب وإنما هو مندوب إلا في تعليم الصبيان، فالأولى أن يبدأ بهم من آخر المصحف إلى أوله، والله أعلم.

حكمة تسوير القرآن:

لتقسيم القرآن الكريم إلى سور حكم عديدة منها:

- ١- التيسير والتشويق لمدارسة القرآن الكريم وحفظه إذ لو كان سبيكة واحدة لشق حفظه وصعبت مدارسته.
- ٢- الدلالة على موضوع السورة وأهدافها إذ إن لكل سورة موضوعا خاصا، وأهدافا معينة، فسورة يوسف تترجم لقصته، وسورة التوبة تتحدث عن المنافقين وتكشف أسرارهم.. وهكذا.
- ٣- التنبيه إلى أن الطول ليس شرطا من شروط الإعجاز والتحدي، فسورة الكوثر ثلاث آيات وهي معجزة إعجاز سورة البقرة.
- ٤- التدرج في تعليم الأطفال من السور القصار إلى السور الطوال تيسيرا من الله لعباده لحفظ كتابه.
- ٥- أن الكتاب إذا انطوت تحته أنواع وأصناف وأبواب وفصول كان أحسن وأفهم من أن يكون بابا واحدا.
- ٦- أن القارئ إذا ختم سورة أو جزءا كان أنشط له وأبعث على التحصيل والاستمرار في التلاوة منه لو استمر على الكتاب بطوله، كالمسافر إذا قطع ميلا نقس ذلك عنه وتجدد نشاطه ولذا جزئ القرآن أجزاء وأجزاء وأرباعا وأخماسا وأعشارا.
- ٧- أن الحافظ إذا حذق سورة اعتقد أنه أخذ من كتاب الله طائفة مستقلة بنفسها فيعظم عنده ما حفظه ويجرص على معاهدته وتكرار تلاوته، ومنه حديث أنس رضي الله عنه: "كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جد فينا" ١.
- ٨- أن التفصيل سبب تلاحق الأشكال والنظائر وملاءمة بعضها لبعض وبذلك تتلاحظ المعاني ويتجاوب النظم ٢.

ثانياً: آيات القرآن الكريم:

تعريف الآية:

الآية في اللغة تطلق على عدة معانٍ منها:

١. المعجزة: ومنه قوله تعالى: {سَلِّ بَنِي إِسْرَٰئِيلَ كَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ}
٢. العلامة: ومنه قوله تعالى: {إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ}
٣. العبرة: ومنه قوله تعالى: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}
٤. البرهان والدليل: ومنه قوله تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ}
٥. الأمر العجب، تقول العرب: "فلان آية في العلم وفي الجمال".
٦. الجماعة، تقول العرب: "خرج القوم بأيّتهم" أي بجماعتهم.

والآية في الاصطلاح:

طائفة ذات مطلع ومقطع مندرجة في سورة من القرآن.

المناسبة بين المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي:

لأن الآية القرآنية معجزة ولو باعتبار انضمام غيرها إلينا وهي علامة على صدق من جاء بها وفيها عبرة وعظة لمن أراد أن يعتبر وهي دليل وبرهان، على أن هذا القرآن من الله تعالى، وهي من الأمور العجيبة لسموها وبلاغتها وإعجازها وهي جماعة من الحروف، فمعانيها في اللغة موجودة في معناها الاصطلاحي.

إطلاق الآية:

تطلق الآية ويراد بها:

1. الآية ومثاله قول ابن مسعود رضي الله عنه: أعظم آية في القرآن: {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ}.
2. وقد يطلق لفظ الآية على ما هو أكثر منها كقول ابن مسعود رضي الله عنه أخوف آية في القرآن: {فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ} فإنهما آيتان باتفاق.

عدد آيات القرآن الكريم:

أجمع العلماء على أن عدد آيات القرآن ستة آلاف آية ومائتا آية ثم اختلفوا في الزيادة:

- فمنهم من لم يزد على ذلك.
- ومنهم من قال: ومائتا آية وأربع آيات.
- ومنهم من قال: وأربع عشرة آية.
- ومنهم من قال: وسبع عشرة آية.
- ومنهم من قال: وتسع عشرة آية.
- ومنهم من قال: وعشرون آية.
- ومنهم من قال: وست وثلاثون آية.

وغير ذلك.

سبب الاختلاف وأثره:

سببه أن النبي -ﷺ- كان يقف على رعوس الآي للتوقيف ليعلم أصحابه أنها رأس آية، حتى إذا علموا ذلك صار يصل الآية بما بعدها لتمام المعنى فيحسب من لم يسمعه أولاً أنها فاصلة فيعد الآيتين آية واحدة، ولذا يختلف العدد. وليس لهذا أثر يذكر ما دام القرآن الكريم سالمًا من الزيادة أو النقصان فالقطعة من القماش إذا قاسها إنسان بذراعه الطويلة، ثم قاسها إنسان آخر بذراعه القصيرة فسيكون هناك اختلاف في العدد سببه اختلاف المقياس مع سلامة القطعة من الزيادة أو النقصان في الحالين.

ترتيب الآيات في القرآن الكريم:

قال الإمام السيوطي رحمه الله تعالى: "الإجماع والنصوص المترادفة على أن ترتيب الآيات توقيفي لا شبهة في ذلك، أما الإجماع فنقله غير واحد منهم الزركشي في البرهان، وأبو جعفر بن الزبير في مناسباته، وعبارته: "ترتيب الآيات في سورها واقع بتوقيفه -ﷺ- وأمره من غير خلاف في هذا بين المسلمين"1، ثم ذكر عددا من النصوص والآثار الشاهدة على ذلك.

فقد كان جبريل عليه السلام ينزل بالآيات على الرسول -ﷺ- ويخبره بموضعها من السورة، ثم يقرأها الرسول عليه الصلاة والسلام على أصحابه ويأمر كتاب الوحي بكتابتها بعد أن يبين لهم موضعها من السورة.

وكان عليه الصلاة والسلام يتلو آيات القرآن الكريم مرتبة في الصلوات المفروضة والنافلة، وفي مواعظه فيسمعها أصحابه ويحفظونها كما سمعوها، وكانوا يعرضون على الرسول -ﷺ- ما كتبوه على الترتيب المعروف وشاع ذلك وملا البقاع، والأمة يتدارسونه فيما بينهم ويقرءونه في صلواتهم، ويأخذ بعضهم عن بعض بالترتيب القائم، فليس لأحد من الصحابة يد في ترتيب شيء من آيات القرآن الكريم2.

وقد نقل السيوطي عددا من نصوص العلماء في ذلك منها قول مكي وغيره ترتيب الآيات في السور بأمر من النبي ﷺ، وقال القاضي أبو بكر

في الانتصار: "ترتيب الآيات أمر واجب وحكم لازم فقد كان جبريل يقول: ضعوا آية كذا في موضع كذا وقال ابن الحصار ترتيب السور ووضع الآيات مواضعها إنما كان بالوحي كان رسول الله -ﷺ- يقول: "ضعوا آية كذا في موضع كذا" وقد حصل اليقين من النقل

المتواتر بهذا الترتيب من تلاوة رسول الله -ﷺ- ومما أجمع الصحابة على وضعه هكذا في المصحف".

طريق معرفة بداية الآية ونهايتها:

للعلماء في طريق معرفة بداية الآية ونهايتها قولان:

• القول الأول:

أنه لا سبيل إلى معرفة بدايات الآيات ونهاياتها إلا بتوقيف من الشارع؛ لأنه ليس للقياس والرأي مجال فيه وإنما هو محض تعليم وإرشاد من الرسول -ﷺ- واستدلوا على ذلك بأدلة منها:

1- النصوص الواردة عن الرسول -ﷺ- بتحديد عدد الآيات في بعض السور أو تحديد مواضعها كقوله عليه الصلاة والسلام عن الفاتحة: "هي السبع المثاني" وقوله ﷺ: "من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه"

وقوله ﷺ: "تكفيك آية الصيف التي في آخر سورة النساء". وغير ذلك من الأحاديث الكثيرة، مما يدل على أنه لولا أن الرسول -ﷺ- هو الذي بين الآيات من حيث بداياتها ونهاياتها لما عرفنا بداية الآيتين في آخر سورة البقرة مثلا، ولا آية الصيف ولا الآيات السبع في الفاتحة.

- أن العلماء عدوا "الم" آية ولم يعدوا نظيرها "الر" آية وعدوا "المص" آية ولم يعدوا نظيرها وهو "المر" آية، وعدوا "يس" آية ولم يعدوا نظيرها "طس" آية، وعدوا "حم عسق" آيتين، ولم يعدوا نظيرها "كهيعص" آيتين، بل آية واحدة، فلو كان الأمر مبنياً على القياس لم يفرقوا بين المثليين.

• القول الثاني:

وقيل: إن معرفة بداية الآيات ونهاياتها منه ما هو سماعي ومنه ما هو قياسي ومرجع ذلك إلى الفاصلة للآية.

فما ثبت أن الرسول -ﷺ- وقف عليه دائماً تحققنا أنه رأس آية وما وصله دائماً علمنا أنه ليس بآية وما وقف عليه مرة ووصله أخرى احتمل الأمرين، وهذا مجال للقياس ولا محذور فيه لأنه لا يؤدي إلى زيادة ولا نقصان في آيات القرآن، وإنما غايته تعيين محل الفصل أو الوصل.

• والرأي الراجح:

أن معرفة بداية الآيات ونهاياتها توقيفي لا مجال للقياس فيه قال الزركشي: "قال بعضهم: الصحيح أنها إنما تعلم بتوقيف من الشارع لا مجال للقياس فيه كمعرفة السورة"3 وقال الزمخشري: "علم الآيات توقيفي لا مجال للقياس فيه".

فوائد معرفة الآيات:

ذكر العلماء لتقسيم السورة إلى آيات حكما كثيرة منها:

1. العلم بأن كل ثلاث آيات قصار معجزة للنبي -ﷺ- وفي حكمها الآية الطويلة، وبيان ذلك أن سبحانه وتعالى تحدى الناس أن يأتوا بسورة من مثل القرآن وأقصر سورة في القرآن هي سورة الكوثر، وهي ثلاثة آيات قصار فدل على أن كل ثلاث آيات قصار معجزة.
2. يرى بعض العلماء أن الوقف على رأس الآية سنة، وتحديد رأس الآية معين على اتباع السنة.
3. هناك بعض الأحكام الفقهية المترتبة على معرفة الآي، ذكرها السيوطي 1 -رحمه الله تعالى- ومنها:
 - أ- اعتبارها فيمن جهل الفاتحة فإنه يجب عليه بدلها سبع آيات عند الشافعي.

فوائد عامة:

- أعلم أن العلماء -رحمهم الله تعالى- قد اختلفوا في عدد آيات القرآن الكريم وعدد كلماته وعدد حروفه، وسبب ذلك أن النبي -ﷺ- كان يقف على رءوس الآي للتوقيف، فإذا علم محلها وصل للتمام فيحسب السامع أنها ليست فاصلة.
- ب- اعتبارها في خطبة الجمعة، فإنه يجب فيها قراءة آية كاملة من القرآن ولا يكفي شطرها إلا أن تكون طويلة.
- ج- اعتبارها في طول الصلاة فقد ورد أنه ﷺ يقرأ في الصبح بالستين إلى المائة آية، وكذا اتخاذها مقياساً زمنياً للفارق بين الأذان والإقامة.
- د- اعتبارها في قراءة قيام الليل وعدد الآيات للقيام.
- وسبب الاختلاف في عدد الحروف أن بعض العلماء يعد البسمة آية في أول كل سورة وبعضهم لا يعدها وأحرف المد ونحوها منهم من يعدها ومنهم من لا يعدها.
- وسبب الاختلاف في عدد كلمات القرآن أن الكلمة لها حقيقة ومجاز ولفظ ورسم واعتبار كل منها جائز، وكل من العلماء اعتبر أحد الجوائز.
- وأطول سورة في القرآن الكريم هي البقرة، وأقصر سورة هي الكوثر، وهي ثلاث آيات.
- وأطول آية: آية الدين وهي الآية 282 من سورة البقرة وأقصر آية "والضحى" و"الفجر".
- وأطول كلمة فيه لفظاً وكتابة: {فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ} 2.

أما أنصاف القرآن فثمانية:

- فنصفه بالحروف "النون" من قوله: {نُكْرًا} 3 في سورة الكهف والكاف من نصفه الثاني، وقيل عين {تَسْتَطِيعُ} 4 وقيل اللام الثانية من {وَلْيَتَلَطَّفْ} 5.
- ونصفه بالكلمات الدال من قوله: {وَالْجُلُودُ} 6 في سورة الحج وقوله تعالى: {وَلَهُمْ مَقَامِعٌ مِنْ حَدِيدٍ} 7 من نصفه الثاني.
- ونصفه بالآيات {يَأْفِكُونَ} 8 من سورة الشعراء وقوله تعالى: {فَأَلْقَى السَّحَرَةُ} 9 من نصفه الثاني.
- ونصفه على عدد السور، فالأول "الحديد" والثاني من "المجادلة" 10.
- قال السيوطي: والاشتغال باستيعاب أكثر ما اجتمع في القرآن من الحروف المتحركة متوالية ثمانية أحرف في سورة يوسف: {إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا} من الآية الرابعة.
- وفي القرآن آية واحدة تجمع حروف المعجم هي قوله تعالى: {مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ} ، الآية 29 من سورة الفتح.

وفي القرآن سورة في كل آية منها اسم الله تعالى هي سورة المجادلة.

وفي القرآن آية فيها 16 ميمًا هي: {قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ ...} الآية 48 هود. وفي آية الدين 33 ميمًا.

وليس في القرآن حاء بعدها حاء إلا في موضعين.

- الأول في البقرة "235" {عُذَّةَ النَّكَاحِ حَتَّى} .

والثاني في الكهف "60" {لَا أَبْرَحُ حَتَّى} .

وليس فيه كاف بعدها كاف في كلمة واحدة إلا في موضعين:

- البقرة "200" {مَنَاسِكُكُمْ} .

- وفي المدثر "42" {مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ} .

وعدد كلمات القرآن الكريم 77439 كلمة وقيل: 77437 وقيل: 77277 وقيل: غير ذلك.

وعدد حروفه 323015 حرفا وقيل: 321000 وقيل: 340740 حرفا.

ذلك مما لا طائل تحته¹.

"قلت": فيه رياضة للنفس وترويح للذهن في أطهر ميدان، والله أعلم.

المحاضرة السابعة بعنوان

المكي والمدني

من المعلوم أن الرسول -صلى الله عليه وسلم- قضى فترة من حياته في مكة قبل البعثة وبعدها، ثم هاجر إلى المدينة النبوية وأقام فيها إلى وفاته صلى الله عليه وسلم. وقد نزل عليه القرآن الكريم في الأمصار والقرى والجبال والوهاد والأودية والسفوح والدور والبراري وفي أوقات مختلفة في الليل والنهار، والسفر، والحضر، والصيف، والشتاء، والسلام، والحرب. وقد اعتنى العلماء عناية فائقة في معرفة مكان النزول وزمن النزول لما في معرفة ذلك من فوائد عديدة لفهم النصوص القرآنية واستيفاء معانيها واستقصاء مدلولاتها. وعندما كان القرآن ينزل في مكة أول البعثة كان المسلمون قلة، وكان المشركون كثرة وللحديث مع الكفار أسلوبه ولمخاطبة المسلمين طريقته.

فالقرآن في مكة يدافع عن القلة من المسلمين، ويرفق بهم وينافح عنهم وسط هذه البيئة من الأعداء المشركين وهم بحاجة إلى من يأخذ بأيديهم ويثبت قلوبهم.

والقرآن في مكة يقارع الخصوم ويحطم معتقداتهم الزائفة بالحجة والدليل ويدفع الشبهات، ويبطل الخرافات، ويكشف الأباطيل والترهات، وهم أهل لجاج وعناد، وإصرار واستكبار وظل القرآن ينافحهم حتى أقام الحجة عليهم وأنشأ جماعة إسلامية كانت نواة الدولة الإسلامية.

وهاجر الرسول -ﷺ- بهذه الجماعة والتقى بجماعة أخرى من المسلمين

في المدينة وأخى بين الجماعتين ومزج بينهما مزجا كان نتاجه نشأة الدولة الإسلامية الصالحة والمؤهلة لتلقي ما بقي من قواعد الإسلام وأحكام التشريع.

ونزل القرآن على المسلمين في المدينة ببسط أحكام الدين، ويرسي قواعده ويبني المجتمع الإسلامي ويؤسس صرح الدولة.

وبلا ريب أن معرفة ما نزل بمكة في تلك الظروف وتلك الأهداف والأغراض ومعرفة ما نزل في المدينة، كذلك يعطى منهاجاً سليماً للدعوة الإسلامية ودروساً للدعاة في مختلف العصور والأمكنة

عناية الإسلام بالمكي والمدني

فلا عجب إذاً أن يعتني العلماء بذلك وأن يولوه اهتمامهم، فهذا علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: "والله ما نزلت آية إلا وقد علمت فيم أنزلت، وأين أنزلت إن ربي وهب لي قلباً عقولاً ولساناً سؤولاً" ١.

وهذا ابن مسعود رضي الله عنه يقول: "والله الذي لا إله غيره ما أنزلت سورة من كتاب الله إلا أنا أعلم أين أنزلت، ولا أنزلت آية من كتاب الله إلا أنا أعلم فيم أنزلت ولو أعلم أحداً أعلم مني بكتاب الله تبلغه الإبل لركبت إليه" ٢.

وقد اهتم العلماء من بعدهم بمعرفة المكي والمدني وأفرده جماعة بالتأليف منهم - كما يقول السيوطي - مكي، والعز الدريني ٣ وفي العصر الحديث صدرت دراسات كثيرة عن خصائص السور المكية، وخصائص السور المدنية.

كما اعتنى به العلماء في مؤلفاتهم فلا تكاد تجد كتاباً يتناول علوم القرآن إلا وكان المكي والمدني أحد أبوابه وفصل القول فيه السيوطي وأشبع الكلام على أوجهه وأفرده بعضها بمباحث خاصة في كتابه الإتيقان ٤.

أنواع المكي والمدني:

وهي كثيرة منها:

ما نزل في مكة، وما نزل في المدينة، وما اختلف فيه، وترتيب ما نزل بمكة والمدينة، وما نزل بمكة وحكمه مدني، وما نزل بالمدينة وحكمه مكي وما نزل بمكة في أهل المدينة، وما نزل بالمدينة في أهل مكة، وما يشبه نزول المكي في المدني، وما يشبه نزول المدني في المكي، وما نزل بالجحفة، وما نزل ببيت المقدس وما نزل بالطائف، وما نزل بالحديبية، وما نزل ليلا، وما نزل نهارا، وما نزل صيفا وما نزل شتاء، وما نزل في الحضر، وما نزل في السفر، وما نزل مشيعا، وما نزل مفردا، والآيات المدنية في السور المكية، والآيات المكية في السور المدنية، وما حمل من مكة إلى المدنية، وما حمل من المدينة إلى مكة

السور المكية والسور المدنية:

اختلف العلماء في عدد السور المدنية، وقد نقل السيوطي عن ابن الحصار أن المدني عشرون سورة، والمختلف فيه اثنتا عشرة سورة وما عدا ذلك مكي

السور المدنية: عشرون هي:

- ١- البقرة. ٢- آل عمران. ٣- النساء.
- ٤- المائدة. ٥- الأنفال. ٦- التوبة.
- ٧- النور. ٨- الأحزاب. ٩- محمد.
- ١٠- الفتح. ١١- الحجرات. ١٢- الحديد.
- ٣- المجادلة. ١٤- الحشر. ١٥- الممتحنة. ١٦- الجمعة.
- ١٧- المنافقون. ١٨- الطلاق. ١٩- التحريم. ٢٠- النصر.

واختلفوا في اثني عشرة سورة هي:

- ١- الفاتحة. ٢- الرعد. ٣- الرحمن. ٤- الصف.
- ٥- التغابن. ٦- المطففين. ٧- القدر. ٨- البينة.
- ٩- الزلزلة. ١٠- الإخلاص. ١١- الفلق. ١٢- الناس.

السور المكية:

ما عدا السور المذكورة فهو مكي وعددها اثنتان وثمانون سورة.

طريق معرفة المكي والمدني:

يعرف المكي والمدني بأحد طريقين:

الطريق الأول:

النقلي السماعي:

وهي الآيات والسور التي عرفنا أنها مكية أو مدنية بطريق الرواية عن أحد الصحابة الذين عاشوا فترة الوحي وشاهدوا التنزيل، أو عن أحد التابعين الذين سمعوا ذلك من الصحابة.

أما النبي -صلى الله عليه وسلم- فلم يرد عنه بيان للسور المكية والسور المدنية لأن هذا مما يشاهده ويحضره الصحابة -رضي الله عنهم- فكيف يخبرهم عن شيء يعلمونه! فالمكي والمدني يعرف بغير نص من الرسول صلى الله عليه وسلم.

قال الباقلاني: "إنما يرجع في معرفة المكي والمدني لحفظ الصحابة والتابعين، ولم يرد عن النبي -صلى الله عليه وسلم- في ذلك قول؛ لأنه لم يؤمر به ولم يجعل الله علم ذلك من فرائض الأمة وإن وجب في بعضه على أهل العلم معرفة تاريخ الناسخ والمنسوخ، فقد يعرف ذلك بغير نص من الرسول".^١

ومن أمثلة ما عرف أنه مكي أو مدني عن طريق الصحابة رضي الله عنه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ١.

فقد أخرج البزار عن ابن عباس رضي الله عنهما أنها نزلت لما أسلم عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ومن المعلوم أن عمر قد أسلم في مكة فالآية إذًا مكية، وسورة الحج روى مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما أنها مكية.

ومنها ما رواه مسلم عن سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس: أَلَمْ يَنْتَهِكْ مَوْلَانَا مَتَعَمَدًا مِنْ تَوْبَةٍ؟ قَالَ: لَا. قَالَ: فَتَلَوْتَ عَلَيْهِ هَذِهِ الْآيَةَ الَّتِي فِي الْفُرْقَانِ: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ. قَالَ: هَذِهِ آيَةٌ مَكِّيَّةٌ نَسَخْتُهَا آيَةً مَدَنِيَّةً: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ﴾.

ومنها حديث عائشة رضي الله عنها وفيه: "لقد نزل بمكة على محمد -ﷺ- وإني لجارية ألعب: ﴿بَلِّ السَّاعَةَ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذْهَى وَأَمْرٌ﴾ وما نزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عنده".

الطريق الثاني: القياسي الاجتهادي:

نظر العلماء رحمهم الله تعالى في الآيات والسور التي عرفوا أنها مكية أو مدنية بالطريق الأول "السماعي النقلي" واستنبطوا خصائص وضوابط للسور المكية وخصائص وضوابط للسور المدنية، ثم نظروا في السور التي لم يرد نصوص في بيان مكان نزولها، فإن وجدوا فيها خصائص السور المكية قالوا إنها مكية، وإن وجدوا فيها خصائص السورة المدنية قالوا: إنها مدنية، وهذا يكون بالاجتهاد والقياس فسمي هذا الطريق بالقياسي الاجتهادي.

نقل الزركشي عن الجعبري قوله: "لمعرفة المكي والمدني طريقان:

سماعي، وقياسي، فالسماعي ما وصل إلينا نزوله بأحدهما، والقياسي كل سورة فيها: "يا أيها الناس" فقط، أو كلا، أو أولها حرف تهج سوى الزهراوين، والرعد، أو فيها قصة آدم وإبليس سوى الطولى فهي مكية، وكل سورة فيها قصص الأنبياء والأمم الخالية مكية، وكل سورة فيها فريضة أوحد فهي مدنية"

تعريف المكي والمدني:

اختلف العلماء في المراد بالمكي والمدني ومتى تسمى السورة أو الآية مكية أو مدنية إلى ثلاثة أقوال: ويرجع اختلافهم إلى المعتبر في النزول، فمنهم من اعتبر مكان النزول، ومنهم من اعتبر زمن النزول، ومنهم من اعتبر المخاطبين بالآيات أو السورة، وعلى هذا:

• القول الأول:

لطائفة اعتبرت مكان النزول فقالت: ما نزل في مكة وما حولها ولو بعد الهجرة، فهو مكي، وما نزل في المدينة وما حولها، فهو مدني.

وهذا القول غير ضابط ولا حاصر؛ إذ إنه لا يشمل ما نزل من الآيات في غير مكة والمدينة وما حولهما، فقد نزلت آيات قرآنية في تبوك وفي بيت المقدس وفي الطائف، فالتعريف غير ضابط.

• والقول الثاني:

لطائفة اعتبرت المخاطب بالآية أو السورة وهذه الطائفة نظرت إلى أهل مكة وقت التنزيل، فوجدت أن الغالب على أهلها الكفر والمناسب لمخاطبتهم النداء بـ "يأيها الناس" أو "يا بني آدم"

وبما أن الغالب على أهل المدينة هو الإيمان، فإن المناسب نداؤهم بـ "يأيها الذين آمنوا"، وعلى هذا فالمكي عندهم ما كان فيه "يا أيها الناس" أو "يا بني آدم" والمدني ما كان فيه "يأيها الذين آمنوا" نقل السيوطي عن أبي عبيد في الفضائل عن ميمون بن مهران قال: ما كان في القرآن "يا أيها الناس" أو "يا بني آدم" فإنه مكي وما كان "يأيها الذين آمنوا" فإنه مدني.

وهذا القول أيضاً غير ضابط ولا حاصر من وجهين:

1. الأول: ضعف هذا القول ابن الحصار فقال: اتفق الناس على أن "النساء" مدنية وأولها "يأيها الناس" وعلى أن "الحج" مكية وفيها: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا} 1 وقال غيره هذا القول إن أخذ على إطلاقه فيه نظر. فإن سورة البقرة مدنية وفيها: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ} 2. {يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ} 3 وسورة النساء مدنية وأولها: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ} 4. وبهذا يكون هذا القول غير ضابط وغير مطرد.
2. الثاني: أن هناك آيات كثيرة وسور عديدة ليس فيها نداء بـ "يأيها الناس" ولا بـ "يأيها الذين آمنوا"، وهذا القول لا يشملها فلا يكون ضابطاً ولا حاصراً.

• القول الثالث

لطائفة اعتبرت الزمان ورأت أن الهجرة هي الحد الفاصل بين المكي والمدني، فما نزل قبل الهجرة فهو مكي، وما نزل بعد الهجرة فهو مدني وإن نزل في مكة

قالوا: "وما نزل في طريق المدينة قبل أن يبلغ النبي -صلى الله عليه وسلم- المدينة فهو من المكي".

وهذا التعريف ضابط وحاصر لا تخرج عنه آية من آيات القرآن الكريم وعليه فإن قوله تعالى: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا} 2. مدنية مع أنها نزلت في عرفات بمكة، بل إن قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا} 3. مدنية مع أنها نزلت في جوف الكعبة لأن هاتين الآيتين نزلتا بعد الهجرة عام الفتح.

ضوابط المكي والمدني

ونعني بالضوابط خصائص الألفاظ، ونعني بالميزات خصائص الأسلوب والمعاني والأغراض للسور المكية أو المدنية.
من ضوابط السور المكية:

1. كل سورة فيها "كلا" فهي مكية.

وردت في القرآن ثلاثاً وثلاثين مرة في خمس عشرة سورة كلها في النصف الأخير من القرآن قال الشيخ الدريني رحمه الله تعالى: وما نزلت كلا بيثرب فاعلمن ... ولم تأت في القرآن في نصفه الأعلى

وحكمة ذلك أن كلا للردع والزجر، وهذا إنما يكون للمعاندين المستكبر فهو مناسب لمخاطبة المشركين في مكة.

2. كل سورة فيها سجدة تلاوة فهي مكية2. وهي أربع عشرة سجدة هي الأعراف والردع، والنحل، والإسراء،

ومريم، وفي الحج سجدتان، والفرقان، والنمل، والسجدة، وفصلت، والنجم، والانشقاق، وقرأ باسم ربك، وأما سورة "ص" فيستحب السجود، وليست من عزائم السجود وزاد بعضهم آخر الحجر3 وفي الردع خلاف.

3. كل سورة مبدوءة بقسم وهي خمس عشرة سورة هي الصافات، الذاريات، الطور، النجم، المرسلات، النازعات، البروج، الطارق، الفجر، الشمس، الليل، الضحى، التين، العاديات، العصر.

4. كل سورة مفتتحة بأحرف التهجي مثل "الم" "حم" وغيرها سوى البقرة وآل عمران، فإنها مدنيتان بالإجماع وفي الردع خلاف.

5. كل سورة فيها يأبها الناس وليست فيها يأبها الذين آمنوا فهي مكية إلا سورة الحج فإنها مكية مع أن في آخرها يأبها الذين آمنوا.

6. كل سورة مفتتحة بـ "الحمد" فهي مكية وهي خمس سور.

7. كل سورة فيها قصص الأنبياء ما عدا البقرة.

مميزات السور المكية:

من المعلوم أن ما نزل من القرآن في مكة كان يخاطب مجتمعا وثنيا فشا فيه الشرك، وانتشرت فيه الأصنام، ولم يتلق الدعوة الإسلامية بالقبول والتسليم، بل أخذ يناوؤها العداء، ويضطهد أتباعها، ويحارب رسولها.

وفي المدينة كان القرآن الكريم غالبا يخاطب أتباعه المؤمنين يأمرهم فينقادون إليه، وينهاهم فيبتهون عما نهى عنه.

وإذا كان الأمر كذلك فلا شك أن البلاغة تقتضي الاختلاف في الأسلوب والاختلاف في المعاني والموضوعات بين ما نزل في مكة، وما نزل في المدينة، فمن مميزات السور المكية.

1. تأسيس العقيدة الإسلامية في النفوس بالدعوة إلى عبادة الله وحده والإيمان برسالة محمد -صلى الله عليه وسلم- وباليوم الآخر، وإبطال المعتقدات الوثنية الجاهلية وعبادة غير الله وإيراد الحجج والبراهين على ذلك.

2. تشريع أصول العبادات والمعاملات والآداب والفضائل العامة ففي مكة فرضت الصلوات الخمس مثلا وحرم أكل مال اليتيم ظلماً، كما حرم الكبر والخيلاء ونحوها.

3. الاهتمام بتفصيل قصص الأنبياء والأمم السابقة، وبيان ما دعا إليه الأنبياء السابقون من عقائد، ومواقف أممهم منهم وما نزل بالمكذابين من عذاب دنيوي جزاء تكذيبهم وإيراد الحوار بين الأنبياء وخصومهم وإبطال حججهم بما يوحى إلى أهل مكة بوجوب أخذ العبرة من هؤلاء وفي هذا بسط أيضا للعقيدة الإسلامية الصحيحة.

4. قصر السور الآيات مع قوة جرس الألفاظ ووقعها. وإيجاز العبارة مع بلاغة المعنى ووفائه، وذلك أن القوم في مكة كانوا معاندين مستكبرين لا يريدون سماع القرآن، بل كانوا إذا شرع الرسول -ﷺ- في القراءة يتنادون: {لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَبُونَ}.

ولا يناسب هذا المقام طول الآيات والمقاطع، بل يناسبه إيجازها وقوة معانيها.

ضوابط السور المدنية:

1. كل سورة فيها يأيها الذين آمنوا وليس فيها يأيها الناس فهي مدنية، قال السيوطي عن علقمة عن عبد الله "يعني ابن مسعود رضي الله عنه" قال: ما كان يأيها الذين آمنوا أنزل بالمدينة، وما كان يأيها الناس فبمكة.. ثم قال: قال ابن عطية وابن الفرس وغيرهما: هو في يأيها الذين آمنوا صحيح، وأما يأيها الناس فقد يأتي في المدني".
2. كل سورة فيها ذكر للمنافقين قال مكي بن أبي طالب القيسي: "كل سورة فيها ذكر المنافقين فمدنية وزاد غيره سوى العنكبوت".

والصحيح أن أول العنكبوت الذي ورد فيه ذكر المنافقين مدني لما أخرجه ابن جرير في سبب نزولها.

3. كل سورة ورد فيها حد أو بيان فريضة، قال عروة بن الزبير: "ما كان من حد أو فريضة فإنه أنزل بالمدينة". وقال محمد بن السائب الكلبي: "كل سورة ذكرت فيها الحدود والفرائض فهي مدنية".

مميزات السور المدنية:

- 1- يخاطب القرآن في المدينة -غالبا- مجتمعا إسلاميا فكان الغالب تقرير الأحكام التشريعية للعبادات والمعاملات والحدود والفرائض، وأحكام الجهاد وغيرها.
- 2- نشأ في المجتمع المدني طائفة من المنافقين فتحدث القرآن الكريم عن طبائعهم وهتك أستارهم، وبين خطرهم على الإسلام والمسلمين وكشف عن وسائلهم ومكائدهم وخباياهم ومخططاتهم للكيد للمسلمين، ولم يكن في مكة نفاق لأن المسلمين كانوا قلة مستضعفين فكان الكفار يحاربونهم جهارا.
- 3- عاش بين المسلمين في المدينة طائفة من أهل الكتاب وهم اليهود، وكانوا يمكرون مكرا سيئا، ويكيدون للإسلام وأهله فكشف القرآن في المدينة سرائرهم وأبطل عقائدهم، وكشف تحريفهم لديانتهم، وبين بطلان عقائدهم، ودعاهم إلى الإسلام بالحجة والدليل والبرهان.
- 4- الغالب على الآيات والسور المدنية طول المقاطع والسور لبسط العقائد الإسلامية والأحكام التشريعية، فقد كان أهل المدينة مسلمين يقبلون على سماع القرآن، وينصتون حتى كأن على رؤوسهم الطير، فالمقام ليس مقارعة ولجاجة يناسبه الإيجاز بل المقام مقام إقبال وإنصات وإذعان يناسبه الاسترسال والإطناب.

فوائد معرفة المكي والمدني:

1. تمييز الناسخ من المنسوخ فإن المتأخر ناسخ للمتقدم.
2. الاستعانة به في تفسير القرآن الكريم، فإن معرفة مكان النزول يعين على فهم المراد بالآية، ومعرفة مدلولاتها وما يرد فيها من إشارات أحيانا.
3. معرفة تاريخ التشريع وتدرجه في التكليف ويترتب على هذا الإيمان بأن هذا التدرج لا يكون إلا من عليم خبير، عزيز حكيم، رحمن رحيم.
4. الاستفادة من أسلوب القرآن في الدعوة إلى الله تعالى فهو أسلوب يشد ويلين ويفصل ويجمع، ويعد ويتوعد، ويرغب ويرهب، ويوجز ويطنب حسب أحوال المخاطبين، وهذا من أسرار الإعجاز في القرآن الكريم.

5. استخراج سيرة الرسول ﷺ - وذلك بمتابعة أحواله في مكة ومواقفه في الدعوة، ثم أحواله في المدينة وسيرته في الدعوة إلى الله فيها واقتداء الدعاة بهذا المنهج النبوي الحكيم في الدعوة.

وقد عني بعض المؤرخين بهذا الجانب فوضعوا المؤلفات في سيرة النبي ﷺ - على ضوء القرآن الكريم.

6. بيان عناية المسلمين بالقرآن الكريم واهتمامهم به حتى إنهم لم يكتفوا بحفظ النص القرآني بل تتبعوا مكان نزوله ومعرفة ما نزل قبل الهجرة وما نزل بعدها وما نزل بالليل وما نزل بالنهار وما نزل في الصيف وما نزل في الشتاء ويتبع هذا الاقتداء بهم في دراسة القرآن وعلومه.

المحاضرة الثامنة بعنوان

أسباب النزول

من المعلوم أن سبب نزول آيات القرآن الكريم كلها هو هداية الناس إلى الحق والصراط المستقيم، لكن هناك آيات تزيد على هذا السبب العام بسبب خاص مرتبط بها وحدها دون غيرها وهذا السبب الخاص هو الذي يبحثه العلماء تحت هذا الموضوع. وعلى هذا فإن آيات القرآن الكريم تنقسم من حيث سبب النزول وعدمه إلى قسمين:

- الأول: قسم نزل من الله ابتداء غير مرتبط بسبب من الأسباب الخاصة وإنما هو مرتبط بالسبب العام وهو هداية الناس، وهذا القسم هو أكثر آيات القرآن الكريم.
- الثاني: قسم نزل مرتبطا بسبب من الأسباب الخاصة يسميه العلماء "سبب نزول الآية" وآيات هذا القسم هي الأقل وأهميتها أفردتها العلماء بالدراسة والبيان.

عناية العلماء بأسباب النزول:

اعتنى العلماء -رحمهم الله تعالى- عناية فائقة بدراسة أسباب النزول وتظهر عنايتهم في ثلاث صور:

- الأولى: أنهم أفردوا أسباب النزول باب مستقل من أبواب علوم القرآن الكريم في مؤلفاتهم.
- الثانية: أن المفسرين يوردون أول ما يوردون في تفسير الآية سبب نزولها -إن كان لها سبب نزول- ويعتنون بذلك ويستندون إليه في تفسير الآية.
- الثالثة: أن العلماء أفردوا أسباب النزول بمؤلفات مستقلة وهي مؤلفات كثيرة، وأول من أفرد، بالتأليف علي بن المديني "ت234هـ" وممن ألف فيه عبد الرحمن بن محمد المعروف بمطرف الأندلسي "ت402هـ" فقد ألف كتابه "القصص والأسباب التي نزل من أجلها القرآن". ومنهم أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي "ت468هـ" واسم كتابه "أسباب النزول"، وطبع مرارًا وقد اختصر الجعبري هذا الكتاب بحذف أسانيده ومنهم ابن الجوزي "ت597هـ" واسم كتابه "أسباب نزول القرآن" ومنهم ابن حجر العسقلاني "ت852هـ" واسم كتابه "العجاب في بيان الأسباب" وقد ذكر السيوطي أنه اطلع على مسودة هذا الكتاب وأن ابن حجر مات قبل أن يبيضه.
- ومنهم السيوطي "ت911هـ" الذي ألف كتابا سماه "لباب النقول في أسباب النزول" وطبع في مجلد واحد، ولا أعرف أحداً اعتنى بتحقيقه.
- ومن المؤلفات الحديثة كتاب "جامع النقول في أسباب النزول" وشرح آياتها للأستاذ ابن خليفة عليوي وهو في جزأين.
- ومنها كتاب "الصحيح المسند من أسباب النزول" للشيخ مقبل بن هادي الوادعي.
- ومنها كتاب "نهاية السؤل فيما استدرك على الواحدي والسيوطي من أسباب النزول" تأليف د. أبو عمر نادي بن محمد الأزهرى.

تعريف سبب النزول:

هو "ما نزل قرآن بشأنه وقت وقوعه" كحادثة تقع حين نزول القرآن الكريم فتتزل آية أو آيات من القرآن تبين الحكم فيها أو كسؤال يوجه إلى الرسول -ﷺ- فتتزل آية أو آيات من القرآن الكريم وفيها الإجابة عليه.

ويفيد قولنا "وقت وقوعه" أنه لا بد أن يكون نزول الآيات وقت وقوع الحادثة أو توجيه السؤال فإن كانت الحادثة قبل نزول الآيات بزمان طويل خرج ذلك عن هذا الباب وصار من باب

الإخبار عن الوقائع الماضية والأهم السابقة كالآيات التي تتحدث عن خلق آدم عليه السلام، وقصته مع إبليس، وقصة إبنی آدم، وقصص الأنبياء السابقين كنوح وإبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم عليهم السلام، فإن الحديث عن ذلك ليس من هذا الباب.

ولا يلزم أن يكون نزول الآيات بعد الحادثة أو السؤال مباشرة، بل يصح أن يتأخر زما يسيرا فإن قوله تعالى: {وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا، إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَادْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا}. قد نزل بعد خمس عشرة ليلة من الحادثة وكذا الآيات المتعلقة بحادثة الإفك إنما نزلت بعد نحو شهر منها.

والحادثة:

التي ينزل القرآن لأجلها قد تكون من الرسول -ﷺ- كما حدث في سبب نزول سورة عبس حين جاء ابن أم مكتوم إلى الرسول -ﷺ- وهو يناجي بعض زعماء قريش ويدعوهم إلى الإسلام، فجاءه ابن أم مكتوم وقال: يا رسول الله علمني مما علمك الله وجعل يناديه ويكرر النداء والرسول -ﷺ- مشغول عنه ومقبل على هؤلاء النفر فنزلت سورة عبس. فكان الرسول -ﷺ- إذا رأى ابن أم مكتوم بعد ذلك يقول: "مرحبًا بمن عاتبني فيه ربي".

وقد تكون الحادثة من جماعة من الصحابة -رضي الله عنهم- كأولئك الصحابة الذين كانوا يصفون المنافقين ويواصلون رجالا من اليهود لما كان بينهم من القرابة والصداقة والجلف والجوار والرضاع فأُنزل الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ}.

وقد تكون الحادثة من المشركين أو من اليهود أو من المنافقين والأمثلة على ذلك كثيرة.

كما أن السؤال قد يكون عن ماض كقوله تعالى: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ ذِي الْقُرْنَيْنِ}، أو عن حاضر كقوله تعالى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ}. وقوله سبحانه: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ} أو عن مستقبل كقوله تعالى: {يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ}، وقوله: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ}.

طريق معرفة سبب النزول:

سبب النزول حادثة من أحداث التاريخ الواقعة في عهد الرسول -ﷺ- ولهذا فلا طريق لمعرفته إلا طريق الرواية الصحيحة ممن شاهده وحضره ولا يمكن الاجتهاد في معرفة ذلك، بل لا يجوز لأنه من القول في القرآن بغير علم قال تعالى: {وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ}.

وقال -ﷺ-: "من قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار" رواه الترمذي. وقال هذا حديث حسن.

روى الواحدي عن محمد بن سيرين قال: سألت عبيدة عن آية من القرآن فقال: اتق الله، وقل سدادًا، ذهب الذين يعلمون فيما أنزل القرآن¹. وقال الواحدي: "ولا يحل القول في أسباب نزول الكتاب إلا بالرواية والسماع ممن شاهدوا التنزيل ووقفوا على الأسباب".

وإذا ورد سبب النزول عن صحابي فلا تخلو عبارته أن تكون جازمة وصريحة في السببية فلها حكم الحديث المرفوع. وإما أن تكون العبارة غير صريحة كأن يقول: "نزلت هذه الآية في كذا" فإنها

تحتمل أن المراد بها سبب النزول وتحتمل أن هذا داخل في الآية وإن لم يكن السبب، بل يراد بيان حكم من الأحكام الواردة في الآية.

قال ابن تيمية رحمه الله تعالى: "وقد تنازع العلماء في قول الصاحب: "نزلت هذه الآية في كذا" هل يجري مجرى المسند، كما لو ذكر السبب الذي أنزلت لأجله أو يجري مجرى التفسير منه الذي ليس بمسند؟ فالبخاري يدخله في المسند، وغيره لا يدخله في المسند، وأكثر المسانيد على هذا الاصطلاح كمسند أحمد وغيره وبخلاف ما إذا ذكر سببا نزلت عقبه، فإنهم كلهم يدخلون مثل هذا في المسند".

وإذا ورد سبب النزول عن تابعي فيشترط لقبوله أربعة شروط:

1. أن تكون عبارته صريحة في السببية: بأن يقول: "سبب نزول هذه الآية كذا" أو أن يأتي بفاء تعقيبية داخلية على مادة النزول بعد ذكر حادثة أو سؤال، كأن يقول حدث كذا وكذا أو سئل رسول الله -ﷺ- عن كذا فأنزل الله تعالى هذه الآية أو فنزلت هذه الآية
2. أن يكون الإسناد صحيحًا.
3. أن يكون التابعي من أئمة التفسير الذين أخذوه عن الصحابة.
4. أن يعتضد برواية تابعي آخر تتوافر فيه نفس الشروط وإذا اكتملت هذه الشروط في رواية تابعي قبلت وصار لها حكم الحديث المرسل.

قال السيوطي -رحمه الله تعالى- عن سبب النزول إذا ورد عن تابعي أنه "قد يقبل إذا صح المسند إليه، وكان من أئمة التفسير الأخذين عن الصحابة كمجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير أو اعتضد بمرسل آخر ونحو ذلك".

وبهذا ندرك الحيلة الشديدة التي اتخذها العلماء -رحمهم الله تعالى- لصيانة تفسير القرآن من الدخيل والتحريف والتبديل.

فوائد معرفة سبب النزول:

لمعرفة سبب النزول فوائد كثيرة من أهمها:

- 1- معرفة حكمة التشريع. وأنه قام على رعاية مصلحة الأمة ودفع الضرر عنها وجلب الخير لها والرحمة بها وذلك كحادثة خولة بنت ثعلبة -رضي الله عنها- حين جاءت إلى الرسول -ﷺ- تشتكي زوجها وهي تقول: يا رسول الله أبلى شبابي، ونثرت له بطني، حتى إذا كبر سني، وانقطع ولدي، ظاهر مني، اللهم إني أشكو إليك. فنزل قوله تعالى: {قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا} وهو أوس بن الصامت. فشرع الله تعالى الكفارة رحمة بها وبأمثالها وصيانة للأسرة في المجتمع الإسلامي من التفكك وحماية للأبناء من التشرد.
- 2- معرفة سبب النزول يعين على فهم المراد بالآية وتفسيرها التفسير الصحيح ودفع اللبس والإشكال عن معناها قال الواحدي عن أسباب النزول

هي أوفى ما يجب الوقوف عليها، وأولى ما تصرف العناية إليها لامتناع معرفة تفسير الآية وقصد سبيلها، دون الوقوف على قصتها وبيان نزولها". وقال أبو الفتح القشيري: "بيان سبب النزول طريق قوي في فهم معاني الكتاب العزيز". وقال ابن تيمية رحمه الله تعالى: "ومعرفة سبب النزول يعين على فهم الآية؛ فإن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب ولهذا كان أصح قول الفقهاء، أنه إذا لم يعرف ما نواه الحالف رجع إلى سبب يمينه وما هيجها وأثارها".

ومن الأمثلة على ذلك:

- 1- قوله تعالى: {وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَانْجِبُوا لِحَيْثُ أُولُوا}.

فظاهر هذه الآية يدل على أن للإنسان أن يصلي إلى أية جهة شاء ولا يجب عليه استقبال القبلة لا في سفر ولا في حضر ولا في فرض ولا في نافلة وهذا مخالف لما هو معلوم من الأدلة الأخرى في الكتاب والسنة بوجوب التوجه إلى شطر المسجد الحرام. ويزول الإشكال إذا عرف سبب نزول هذه الآية كما رواه جابر بن عبد الله -رضي الله عنه- قال: "بعث رسول الله -ﷺ- سرية كنت فيها فأصابتنا ظلمة فلم نعرف القبلة فقالت طائفة منا قد عرفنا؛ القبلة

هي ههنا قبل الشمال، فصلوا وخطوا خطوطاً، وقال بعضهم: القبلة ههنا قبل الجنوب فصلوا وخطوا خطوطاً، فلما أصبحوا وطلعت الشمس أصبحت تلك الخطوط لغير القبلة، فلما قفلنا من سفرنا سألنا النبي -ﷺ- عن ذلك، فسكت فأنزل الله تعالى: {وَاللَّهُ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ} 5.

روى مسلم في صحيحه عن ابن عمر -رضي الله عنهما- قال: كان رسول الله -ﷺ- يصلي وهو مقبل من مكة إلى المدينة على راحلته حيث كان وجهه قال: وفيه نزلت: {فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ}.

وبهذا ندرك أن هذه الآية خاصة بمن صلى وهو لا يعرف القبلة ثم يتبين له خطؤه فإنه لا يعيد الصلاة، وكذا في صلاة النافلة على الراحلة في السفر لا يلزم التوجه إلى القبلة. وبمعرفة سبب النزول زال الإشكال.

2- قوله تعالى: {إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا}.

فظاهر هذه الآية نفي الجناح عمن طاف بالصفا والمروة مع أن الطواف بهما فرض، والتعبير بنفي

الإثم لا يدل على الفرضية، وإذا عرف سبب النزول زال الإشكال:

فقد كان للمشركين أصنام على الصفا والمروة وكانوا يطوفون بهما فلما جاء الإسلام تخرج هؤلاء عن الطواف بهما فنزلت هذه الآية، وقد روى البخاري عن أنس -رضي الله عنه- أنه سئل: أكنتم تكرهون السعي بين الصفا والمروة؟ قال: نعم، لأنها كانت من شعار الجاهلية حتى أنزل الله {إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا}.

فدل سبب النزول على أن المراد بالآية نفي ما قر في أذهان بعض الصحابة من التخرج من السعي بين الصفا والمروة والاعتقاد بتحريم ذلك؛ لأنه من عمل الجاهلية فنزلت الآية لهذا الإثم ورافعة للتخرج.

3- ومن فوائد معرفة سبب النزول تيسير الحفظ وتسهيل الفهم

تثبيت الوحي في ذهن كل من يسمع الآية، إذا عرف سبب نزولها لأن ربط الأسباب بالمسببات والأحكام بالحوادث، والحوادث بالأشخاص والأزمنة والأمكنة كل ذلك من دواعي ثبوت المعلومات في الذهن وسهولة استذكارها عند تذكر بعضها، وذلك ما يعرف في علم النفس بقانون "تداعي المعاني".

4- معرفة من نزلت فيه الآية بعينه حتى لا يبرأ المتهم أو يتهم البريء وحتى لا يزعم أحد أن المراد بالذم في تلك الآية فلان من الصحابة وهو بريء، أو ينسب إلى آخر صفات مدح في آية، والمراد بها غيره، وفي تفاسير الشيعة كثير من هذا النوع، فلا تكاد تجد آية فيها مدح وثناء على أحد أيا كان إلا وأصقوها بأحد أئمتهم، ولا يدعون آية فيها ذم إلا وأصقوها بمخالفهم أو بأحد صحابة رسول -ﷺ- كأبي بكر وعمر وعثمان وعائشة وغيرهم رضي الله عنهم.

وقد روى البخاري -رحمه الله تعالى- أن مروان بن الحكم كان على الحجاز استعمله معاوية فخطب فجعل يذكر يزيد بن معاوية لكي يبايع له بعد أبيه فقال له عبد الرحمن بن أبي بكر شيئاً فقال: خذوه، فدخل بيت عائشة فلم يقدروا عليه، فقال مروان: إن هذا الذي أنزل الله فيه: {وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أَفِ لَكُمْ أَنْ تُعِدَّانِي} فقالت عائشة من وراء الحجاب: ما أنزل الله فينا شيئاً من القرآن إلا أن الله أنزل عذري.

- ومن فوائد معرفة أسباب النزول:

5- معرفة أن سبب النزول غير خارج عن حكم الآية إذا ورد مخصص لها.

وبيان ذلك أن اللفظ قد يكون عامًا ويقوم دليل على تخصيصه فلا يجوز إخراج السبب من حكم الآية بالاجتهاد والإجماع لأن دخول السبب قطعي. وإخراجه بدليل التخصيص اجتهادي، والاجتهاد ظني، ولا يجوز إخراج القطعي بالظني.

ومثال ذلك قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ}.

وسبب نزول هذه الآية حادثة الإفك المشهورة ولفظ الآية عام بالوعيد يشمل التائب وغير التائب. لكن الآية الأخرى استثنت من تاب فقال تعالى: {وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ، إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}.

فلفظ الآية هنا عام ثم خصص بقوله تعالى: {إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ}

وبهذا التخصيص نخصص عموم الآية الأولى: {إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ} الآية، لكن التخصيص للآية الأولى لا يشمل سبب نزولها وهو قذف عائشة -رضي الله عنها- فيبقى على عمومها بعدم قبول توبة من قذفها لأن دخوله في لفظ الآية الأولى العام قطعي وإخراجه بما ورد في الآية الثانية اجتهادي ظني والقطعي لا يخرج بالظني.

وبهذا يبقى حكم عدم قبول توبة القاذف خاصًا بقذف عائشة وأمّهات المؤمنين، ويكون قبول التوبة في قذف غيرهن، ولذا قال ابن عباس -رضي الله عنهما- في قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ} نزلت في عائشة خاصة.

وفي حديث آخر عن ابن عباس رضي الله عنهما في هذه الآية: "هذه في عائشة وأزواج النبي -ﷺ- ولم يجعل الله لمن فعل ذلك توبة وجعل لمن رمى امرأة من المؤمنات من غير أزواج النبي -ﷺ- التوبة، ثم قرأ: {وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ} إلى قوله: {إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا}.

فجعل لمن قذف امرأة من المؤمنات التوبة ولم يجعل لمن قذف امرأة من أزواج النبي -ﷺ- توبة.

والخلاصة أن الثانية خصت عموم الآية الأولى إلا سبب النزول فلا تخصصه لأن دخوله قطعي وتخصيصها ظني.

6- تخصيص الحكم بالسبب عند من يرى أن العبرة بخصوص السبب لا بعموم اللفظ.

ومثال قوله تعالى: {لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُجِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}.

فقد أشكل عموم هذه الآية على مروان بن الحكم فقال لبوابه: اذهب يا رافع إلى ابن عباس فقال: لئن كان كل امرئ فرح بما أوتي، وأحب أن يحمد بما لم يفعل معذبًا، لنعذب أجمعين فقال ابن عباس: وما لكم ولهذا إنما دعا النبي -ﷺ- يهود فسألهم عن شيء فكتموه إياه وأخبروه بغيره فأروه أن قد استحمدوا إليه ما أخبروه عنه فيما سألهم وفرحوا بما أوتوا من كتمانهم ثم قرأ ابن عباس: {وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ} 3. كذلك حتى قوله: {يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُجِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا}

- ومن فوائد معرفة سبب النزول كشف وجه من وجوه بلاغة القرآن الكريم حيث مراعاة الكلام لمقتضى الاستفادة من معرفة سبب النزول في مجال التربية والتعليم:

نقل المعلومات من ذهن إلى ذهن يحتاج إلى أمرين مهمين:

- أولهما: القدرة من المدرس.
- ثانيهما: الاستعداد من الطالب.

ولا نجاح للعملية التعليمية ما لم يكن عند مدرس المادة قدرة على التعبير الصحيح عما يريد إيصاله إلى أذهان الطلاب.
ولا نجاح للعملية ما لم يكن ذهن الطالب مهيباً ومشروعاً أبوابه لدخول المادة العلمية. وفتح ذهن الطالب عملية مشتركة بين الطالب والمدرس.

فالمدرس الناجح هو الذي يستطيع أن يثير مشاعر الطلاب ويجذب انتباههم، ويهيئ نفوسهم لتقبل المادة العلمية، وليست هذه المهمة بالمهمة السهلة، بل تحتاج إلى جهد كبير، وفطنة لمحة.

والتمهيد للدرس من أهم مراحله، وهي مرحلة تحتاج إلى خبرة ودراية:

1. للربط بين المعلومات.
 2. لتأسيس قاعدة يقف عليها ذهن الطالب للإنطلاق من معلومة إلى معلومة أو من الكل إلى الجزء، إلى أن يدرك عناصر الدرس ويستوعبها.
 3. لإثارة انتباه الطلاب وجذب مشاعرهم.
- وعرض سبب النزول سبيل ناجح لتحقيق هذه الأمور في تدريس تلاوة القرآن الكريم، وتدريس تفسير القرآن الكريم، إذ إن سبب النزول -كما أشرنا في التعريف- لا يخلو من أن يكون حادثة أو سؤالاً، ومثل هذا كاف لجذب انتباه الطلاب وربطهم بالمادة العلمية، وتزويدهم بمعلومة عامة ينطلقون منها إلى التفصيل ومعرفة ما يتعلق بالآية من تفسير لمفرداتها. وبيان لأحكامها وإدراك لأسرار التشريع فيها، وتوثيق صلتهم بالآية.
- أي الحال وذلك بالمطابقة والمقارنة بين الحادثة والنص القرآني الذي نزل فيها.
- وإذا كان عرض سبب النزول طريقة ناجحة للتمهيد لدرس التلاوة ودرس التفسير مثلاً، فإنه يمكن الاستفادة من هذا الأسلوب في سائر المواد بأن يبدأ المدرس بعرض قصة مناسبة تلائم المادة العلمية التي يريد عرضها، أو يوجه سؤالاً يجذب به انتباه الطلاب، ثم ينطلق إلى درسه بعد أن يطمئن إلى إقبال الطلاب عليه وتوجه أذهانهم إليه؛ فيسهل حينئذ تلقينهم للدرس، واستيعابهم له.

حاجة البشر إليه:

خلق الله سبحانه وتعالى الإنسان في أحسن تقويم وركبه أحسن تركيب وجعله من:

1. جسد.

2. روح.

قال تعالى: {إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ، فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ}.

وحين نتأمل في غذاء كل من هذين العنصرين "الروح والجسد" نجد أن الجسد خلق من تراب وأن غذاءه من التراب "نبات أو حيوان يتغذى بالنبات". وأنه إذا مات يتحلل ويعود إلى التراب! ولذلك يتمنى الكافر يوم القيامة لو أنه بقي على أصله الترابي الأول فيقول: {لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا} .

أما الروح فمن الله: {فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي}.

وإن كانت النسبة إضافة تشريف فلا بد أن يكون غذاؤها من الله وليس من التراب ولا من خلق من التراب، فإن التزمت بالغذاء الرباني

صعدت بعد الموت إلى عليين وفتحت لها أبواب السماء: {يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ، ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً}، وإن حادث وأبت إلا الغذاء الترابي أغلقت في وجهها أبواب السماء قال تعالى: {لَا تَفْتَحْ لَهُمُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ}، قال كعب: "أرواح المؤمنين في عليين في السماء السابعة، وأرواح الكفار في سجين في الأرض السابعة تحت جند إبليس".

وغذاء الجسد فيه النافع والضار فإذا غذى الإنسان جسده بالغذاء الجيد صح وقوي بناؤه وظل حيا طريا متماسكا، وإذا غداه بالغذاء الرديء أو أهمل غذاءه ضعف وانحرف مزاجه، وساءت صحته، وخارت قواه، وهزل وذبل.

وكذا غذاء الروح فيه النافع والضار فإذا غذي الإنسان روحه بالغذاء السليم سمت وارتفعت وصحت وسلمت من الأمراض. وغذاؤها صحة الاعتقاد، وسلامتها باتصالها بالله تعالى، قال تعالى: {أَلَا يَذْكُرُ اللَّهُ تَطْمِئِنُّ الْقُلُوبُ}.

وإذا أهمل الإنسان غذاء روحه أو غذاها بالغذاء البشري بأن جعل صلتها بالمبادئ الوضعية والمعتقدات الزائفة أو انقادت لمذلات الجسد الترابي فتغذت بغذائه واستغنت به عن غذائها الرباني ضعفت وخارت وتاهت وانحرف مزاجها ولم يقر لها قرارا وضافت عليها الأرض على سعتها.

قال تعالى: {وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا}، {وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ}. وقد تطلب الخروج من هذا الجسد الذي ضاقت به وضاق بها فتؤدي بصاحبها إلى الانتحار ...

إن من على الإنسان أن يحرص على اختيار غذاء الروح كما يحرص على اختيار غذاء الجسد، وأن يسأل أطباء الأرواح عن غذائها النافع كما يحرص على سؤال أطباء الأبدان عن غذاء الجسد الفاني وعليه أن يعرض روحه على أهل الذكر كما يعرض جسده على أهل الطب وأن يعالج روحه كما يعالج بدنه، وأن يتفقد كما يتفقد بدنه، وأن يحاسبها دورياً كما يجري الفحوص الدورية لجسد

وإذا كان غذاء هذه الأجساد الترابية السفلية الفانية من أصلها الترابي يستمد، فإن غذاء هذه الأرواح السامية الباقية من الله العلي الباقي الدائم يستمد.

وقد هيا الله -عز شأنه- الطعام المناسب لكل من هذين العنصرين فجعل غذاء هذا الجسد من التراب الذي خلق منه يحرث الأرض ويزرعها فينبت الطعام أو يحفرها الماء أو يجده أقرب من ذلك فوقها.

وهذه الروح من الله فجعل غذاءها من عنده ينزل به الروح الأمين على الرسل فتنتشره بين الناس وتدعوا إليه فمن اهتدى فقد اهتدى لنفسه ومن ضل فاعلينا.

فإذا كان الله سبحانه يهيئ الطعام لهذه الأجساد فلا عجب أن يهيئ الطعام لهذه الأرواح ومن الجهل كل الجهل والضلال كل الضلال الاعتقاد

أن الإنسان بعقله أصبح يعرف الحق من الباطل فليس هو بحاجة إلى من يخبره بذلك، لا يصح هذا لأن الروح لا تزال بحاجة إلى غذائها العلوي ما بقيت في الجسد كما أن الجسد لا يزال بحاجة إلى غذائه السلفي ما بقيت فيه روح.

وإن من رحمة الله تعالى بعباده أن أنزل جبريل عليه السلام بغذاء الأرواح إلى الأنبياء عليهم السلام كما خلق لهذه الأجساد غذاءها، ولا ينكر هذه الحاجة إلا مكابر معاند أو جاهل أحمق.

فالوحي من الله رحمة بعباده لتتغذى به الأرواح، وخلق الطعام رحمة من الله بعباده لتتغذى به الأجساد، وببقاء العنصرين يبقى الإنسان وبفقد أحدهما يهلك.

والقرآن وحي: {وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّنُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا}، وسنة الرسول ﷺ وحي: {وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ، إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ}

تعريف الوحي:

الوحي لغة:

أصل الوحي في اللغة إعلام في خفاء، وقال الحرالي: هو إلقاء المعنى في النفس في خفاء قال الأزهري: وكذلك الإشارة والإيماء يسمى وحيًا والكتابة تسمى وحيًا وقال الراغب الأصفهاني: أصل الوحي الإشارة السريعة ولتضمن السرعة قيل: أمر وحي، وذلك يكون بالكلام على سبيل الرمز والتعريض، وقد يكون بصوت مجرد عن التركيب وبإشارة ببعض الجوارح، وبالكتابة وقال الزبيدي: أوحى إليه: كلمه كلام يخفيه وقال ابن تيمية رحمه الله تعالى: الوحي الإعلام السريع الخفي إما في اليقظة وإما في المنام.

وبهذا يظهر أن الوحي في الأصل: الخفاء والسرعة، وعلى هذا فالوحي في اللغة: الإعلام الخفي السريع الخاص بمن يوجه إليه بحيث يخفى على غيره

وطرقه كما أشار إليها الراغب الأصفهاني آنفاً:

1. الكلام على سبيل الرمز والتعريض.
2. الصوت المجرد عن التركيب.
3. الإشارة ببعض الجوارح.
4. الكتابة.

للوحي أنواع بالمعنى اللغوي وأنواع بالمعنى الشرعي وقد يشتركان في بعضها من حيث الكيفية لكنهما يختلفان من حيث الاعتبار، فالوحي بالمعنى الشرعي خاص بالأنبياء عليهم السلام. وأنواعه بالمعنى اللغوي:

1. إلهام الخواطر أو الإلهام الفطري للإنسان وهو ما يلقيه الله في روع الإنسان السليم الفطرة الطاهر الروح كالوحي إلى أم موسى، قال تعالى: {وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ...}
- ومنه الوحي إلى الحواريين، قال تعالى: {وَإِذْ أُوحِيتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ}.
2. الإلهام الغريزي للحيوان، كالوحي إلى النحل، قال تعالى: {وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ}.
3. الأمر الكوني للجمادات، قال تعالى: {إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا، وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا، وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا، يَوْمَئِذٍ تُخْبِتُ أَخْبَارَهَا، بِإِنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا}. وقال تعالى: {وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا}.
4. ما يلقيه الله إلى ملائكته من أمر ليفعلوه، قال تعالى: {إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَتُنَبِّئُوا الَّذِينَ آمَنُوا} وقال سبحانه: {فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ} فالإيحاء الأول من جبريل عليه السلام إلى محمد -ﷺ- والثاني من الله سبحانه وتعالى إلى جبريل عليه السلام. والمعنى: فأوحى جبريل إلى محمد -ﷺ- ما أوحى الله إليه
5. الإشارة السريعة بجراحة من الجوارح كإيحاء زكريا عليه السلام إلى قومه: {فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا}.
6. وسوسة الشيطان، قال تعالى: {وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ} وقال سبحانه: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا}.

الوحي شرعاً:

اختلف العلماء في تعريف الوحي فمنهم من يعرفه بمعنى "الموحي" فيقول هو: كلام الله تعالى المنزل على أحد أنبيائه وقيل: هو ما أنزل الله على أنبيائه وعرفهم به من أنباء الغيب والسرائر.

ومنهم من يعرفه بمعنى "الإيحاء" فيقول هو إعلام الله لأحد أنبيائه بحكم شرعي أو نحوه.

وقولنا: "إعلام" يشمل أنواع الوحي بمعناه الشرعي كما سيأتي بيانها. وقولنا: "الله" قصر للوحي الشرعي بأنه من الله لا من غيره سبحانه

وقولنا: "لأحد أنبيائه" قصر للوحي بالمعنى الشرعي على الوحي للأنبياء. وقولنا: "بحكم شرعي" بيان للموحي به.

وقولنا: "أو نحوه" يراد به القصص والأخبار ونحوها الواردة في القرآن أو السنة مما لم يرد فيها حكم شرعي فهي من الوحي أيضاً.

وظاهر أن الوحي بالمعنى الشرعي لا يخرج عن حد المعنى اللغوي والفرق بينهما هو الفرق بين العام والخاص. فالوحي بالمعنى اللغوي عام يشمل كل "إعلام في خفاء" والوحي بالمعنى الشرعي خاص لا يتناول إلا ما كان من الله تعالى لنبي من الأنبياء، فالوحي بالمعنى الشرعي أخص من المعنى اللغوي لخصوص مصدره ومورده فقد خص المصدر بأنه من الله وخص المورد بالأنبياء

(1) ما يكون مناماً.

وهو أول مراتب الوحي كما جاء في حديث عائشة رضي الله عنها: "أول ما بدئ به رسول الله -ﷺ- من الوحي الرؤيا الصالحة -وعند مسلم الصادقة- في النوم، وكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح الحديث".

وليست الرؤيا خاصة بالفترة الأولى من الوحي بل وقعت بعد ذلك كما قال تعالى: {لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ} الآية.

ووقع الوحي بالمنام لإبراهيم عليه السلام كما جاء في القرآن عنه قوله: {يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ، فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ، وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ، قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ}.

ومبادرة إبراهيم عليه السلام للامتثال وقول إسماعيل عليه السلام: {افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ}

وقول الله تعالى: {قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا} دليل قاطع على أن رؤيا الأنبياء عليهم السلام وحي وأمر من الله سبحانه لهم عليهم السلام.

وفي ابتداء النبي -ﷺ- من الوحي بالرؤيا الصالحة في المنام تهيئة

استعداد لتلقي الوحي في اليقظة، ويدل على هذا حديث علقمة بن قيس صاحب عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه- قال: "إن أول ما يؤتى به الأنبياء في المنام حتى تهدأ قلوبهم، ثم ينزل الوحي بعد في اليقظة".

ولم ينزل من القرآن شيء عن طريق الوحي بالمنام، وقد ظن بعضهم أن سورة الكوثر نزلت في المنام مستدلاً بحديث أنس بن مالك رضي الله عنه: "بينما رسول الله -ﷺ- ذات يوم بين أظهرنا إذ أغفى إغفاءة ثم رفع رأسه مبتسماً، فقلنا: ما أضحكك يا رسول الله قال: "أنزلت عليّ أنا سورة" فقرأ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، {إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ، فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ، إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ}.

والصحيح أن هذه الإغفاءة ليست إغفاءة نوم؛ فقد حكى السيوطي عن الرافي قوله: "وقد يحمل ذلك على الحالة التي كانت تعتريه عند نزول الوحي ويقال لها برحاء الوحي أ. هـ. قلت -يعني السيوطي: الذي قاله الرافي في غاية الاتجاه وهو الذي كنت أميل إليه قبل الوقوف عليه3. ونقل القسطلاني عن أمالي الرافي قوله: "الأشبه أن القرآن نزل كله يقظة". وبهذا يظهر أنه لم ينزل قرآن على الرسول -ﷺ- في المنام، والله أعلم.

(2) ما كان مكاملة بين العبد وربّه:

قال تعالى: {وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكْلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا} الآية5. ومن هذا النوع تكليم الله سبحانه وتعالى لموسى عليه السلام: {وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا}

قوله سبحانه: {وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ} ومنه تكليم الله لنبيينا محمد -ﷺ- في المعراج

ومنه تكليم الله لنبيينا محمد -ﷺ- في المعراج حيث قال: "فأوحى الله إليّ ففرض عليّ خمسين صلاة في كل يوم وليلة"

(3) ما يكون إلهاماً يقذفه الله في قلب نبيه على وجه من العلم الضروري لا يستطيع له دفعاً ولا يجد فيه شكاً، ومنه حديث ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله -ﷺ- قال: "إن روح القدس نفث في روعي 3 أن نفسا لن تموت حتى تستكمل رزقها، ألا فاتقوا الله، وأجملوا في الطلب"

4) ما يكون بواسطة أمين الوحي جبريل -عليه السلام- وهذا النوع أشهر الأنواع وأكثرها، وهو المصطلح عليه بـ "الوحي الجلي" ووحى القرآن كله من هذا القبيل ولم ينزل شيء من القرآن على الرسول -ﷺ- بغير هذا النوع كالإلهام أو المنام أو التكليم بلا واسطة يدل على هذا قوله تعالى: {وَإِنَّهُ لَنَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ، نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ، عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ، بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ}

وقوله سبحانه: {قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ}.

الوحي بجميع أنواعه بالمعنى الشرعي يصحبه علم يقيني ضروري من النبي بأن ما ألقى إليه حق من عند الله ليس من خطرات النفس ولا وسوسة الشياطين، وهذا العلم اليقيني لا يحتاج إلى مقدمات وإنما هو من قبيل إدراك الأمور الوجدانية كالجوع والعطش.

وقد ذكرت هذه الأقسام الأربعة في قوله تعالى: {وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكْلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بآيَاتِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيُّ حَكِيمٌ} وقال الإمام البغوي رحمه الله تعالى في تفسيرها: {وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكْلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا} يوحى إليه في المنام أو بالإلهام: {أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ} يُسمعه كلامه ولا يراه كما كلم موسى عليه السلام: {أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا} إما جبريل أو غيره من الملائكة.

فيه وحى الله سبحانه وتعالى إلى الملائكة عليهم السلام:

ورد ذكر إحياء الله سبحانه وتعالى إلى الملائكة في قوله تعالى: {إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنْتُمْ مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا} وقال سبحانه: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً} وغير ذلك.

وقد ورد وصف وحى الله إلى الملائكة في السنة النبوية في أحاديث كثيرة منها حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي -ﷺ- قال: "إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاء لقوله، كأنه سلسلة على صفوان، ف {إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا} للذي قال: {الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ}"

وعن النواس بن سمعان -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: "إذا أراد الله تعالى أن يوحى بالأمر تكلم بالوحي، فإذا تكلم أخذت السموات منه رجة -أو قال رعدة- شديدة خوفاً من الله عز وجل، فإذا سمع ذلك أهل السموات صعقوا وخروا لله سجداً، فيكون أول من يرفع رأسه جبريل، فيكلمه الله من وحيه بما أراد، ثم يمر جبريل على الملائكة كلما مر بسماء سألته ملائكتها: ماذا قال ربنا يا جبريل؟ فيقول جبريل: قال الحق وهو العلي الكبير، فيقولون كلهم مثل ما قال جبريل، فينتهي جبريل بالوحي إلى حيث أمره الله عز وجل"

وعن عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: "إذا تكلم الله بالوحي سمع أهل السماء صلصلة كجر السلسلة على الصفا قال: فيصعقون فلا يزالون كذلك حتى يأتيهم جبريل فإذا أتاهم جبريل فزع عن قلوبهم، فيقولون يا جبريل: ماذا قال ربك؟ قال: يقول الحق، قال: فينادون: الحق الحق".

وعلى هذا فإن القرآن الكريم كلام الله أسمعه جبريل وبلغه جبريل -عليه السلام- كما سمعه إلى الرسول -ﷺ- وليس لجبريل ولا للرسول إلا البلاغ، كما دلت على ذلك النصوص القرآنية مثل قوله تعالى مخاطباً نبيه عليه الصلاة والسلام: {وَإِنَّكَ لَتَلْقَى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ}.

وقوله سبحانه: {وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي} وقوله سبحانه: {وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَتَنْتِ بُرْآنٍ غَيْرَ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَبْدِلَهُ مِنْ تِلْكَ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ} وقال سبحانه: {وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ، لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ، ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ، فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ} وقال سبحانه: {وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجْرُهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ}

فالوحي من حيث التبليغ قسمان:

- 1- قسم يبلغه جبريل كما سمعه بحروفه وحركاته من غير زيادة ولا نقصان وبلغه الرسول عليه الصلاة والسلام كذلك، وهذا ما أجمع عليه العلماء.
- 2- وقسم بلغه جبريل -عليه السلام- أو الرسول -ﷺ- أو هما معًا بالمعنى، على خلاف بين العلماء.

يفية وحي الله سبحانه وتعالى إلى الرسل عليهم السلام

كيفية وحي الله -سبحانه- إلى الرسل -عليهم السلام:

وحي الله سبحانه إلى رسله -عليهم السلام- إما أن يكون بواسطة أو بدونها وما يكون بدون واسطة فهو ثلاثة أنواع:

- 1- ما يكون منامًا.
- 2- ما يكون كلامًا.
- 3- ما يكون إلهامًا. وسبق بيان هذه الأنواع.

وما يكون بواسطة هو النوع الرابع وهو ما يكون بواسطة جبريل عليه السلام، ويسمى الوحي الجلي

كيفية وحي الملك إلى الرسول:

وهذا الوحي يقوم على اتصال بين جبريل عليه السلام وهو "مَلَك" وبين الرسول -ﷺ- وهو "بشر"، وحين يكون حديث بين اثنين عربي وعجمي -مثلاً- فإن التفاهم بينهما يحتاج إلى أن يتعلم أحدهما لغة الآخر، والوحي اتصال بين "ملك" و"بشر"، فالأمر يحتاج إلى غلبة البشرية على الملك فيفهم البشر كلامه، أو غلبة الروحانية على البشر فيسهل على الملك تبليغه.

وقد أشار إلى هذا المعنى ابن حجر -رحمه الله تعالى- حيث قال: "إن العادة جرت بالمناسبة بين القائل والسامع، وهي هنا إما باتصاف السامع بوصف القائل بغلبة الروحانية وهو النوع الأول، وإما باتصاف القائل بوصف السامع وهو البشرية وهو النوع الثاني".

وقال الزركشي في البرهان والسيوطي في الإتيان: "وفي التنزيل طريقان: أحدهما: أن النبي -ﷺ- انخلع من صورة البشرية إلى صورة الملكية وأخذه من جبريل، والثاني: أن الملك انخلع إلى البشرية حتى يأخذه الرسول منه والأول أصعب الحاليين

كيفية وحي الملك إلى الرسول:

وهذا الوحي يقوم على اتصال بين جبريل عليه السلام وهو "مَلَك" وبين الرسول -ﷺ- وهو "بشر"، وحين يكون حديث بين اثنين عربي وعجمي -مثلاً- فإن التفاهم بينهما يحتاج إلى أن يتعلم أحدهما لغة الآخر، والوحي اتصال بين "ملك" و"بشر"، فالأمر يحتاج إلى غلبة البشرية على الملك فيفهم البشر كلامه، أو غلبة الروحانية على البشر فيسهل على الملك تبليغه.

وقد أشار إلى هذا المعنى ابن حجر -رحمه الله تعالى- حيث قال: "إن العادة جرت بالمناسبة بين القائل والسامع، وهي هنا إما باتصاف السامع بوصف القائل بغلبة الروحانية وهو النوع الأول، وإما باتصاف القائل بوصف السامع وهو البشرية وهو النوع الثاني

وقال الزركشي في البرهان والسيوطي في الإتيان: "وفي التنزيل طريقان: أحدهما: أن النبي -ﷺ- انخلع من صورة البشرية إلى صورة الملكية وأخذه من جبريل، والثاني: أن الملك انخلع إلى البشرية حتى يأخذه الرسول منه والأول أصعب الحالتين".

ووصف ابن خلدون الحالة الأولى بأنها انسلاخ من البشرية الجسمانية واتصال بالملكية الروحانية، والحالة الأخرى عكسها لأنها انتقال الملك من الروحانية المحضة إلى البشرية الجسمانية.

وبهذا يتبين أن وحي الملك جبريل عليه السلام إلى الرسول -ﷺ- يكون بإحدى حالتين:

• الحالة الأولى:

أن يأتيه مثل صلصلة الجرس، والصلصلة في الأصل: صوت وقوع الحديد بعضه على بعض، ثم أطلق على كل صوت له طنين. ومن صفات هذه الحالة:

1. أنها الأشد على الرسول -ﷺ- كما وصفها عليه الصلاة والسلام
2. أنها شديدة على الرسول -ﷺ- فعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: سألت النبي -ﷺ- هل تحس بالوحي؟ فقال: "أسمع صلاصل ثم أسكت عند ذلك، فما من مرة يوحى إلي إلا ظننت أن نفسي تفيض" وفي مجمع الزوائد: "إلا ظننت أن نفسي تقبض".
3. أنه ﷺ يعرق عرقاً شديداً في هذه الحالة من الوحي كما قالت عائشة رضي الله عنها: "ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً" وقال زيد بن ثابت رضي الله عنه: "كنت أكتب الوحي لرسول -ﷺ- وكان إذا نزل عليه أخذته بُرْخَاءٌ شديدة، وعرق عرقاً شديداً مثل الجمان ثم سري عنه".
4. أن جسمه يثقل ثقلاً شديداً كما روى البيهقي في الدلائل في وصفه للوحي "إن كان ليوحى إلى رسول الله -ﷺ- وهو على ناقته فتضرب على جرانها من ثقل ما يوحى إلى رسول الله -ﷺ- وإن كان جبينه ليطف بالعرق في اليوم الشاتي إذ أوحى الله إليه".

وعن عائشة رضي الله عنها- قالت: "إن كان ليوحى إلى رسول الله -ﷺ- وهو على راحلته فتضرب بجرانها" 2 أي تمد عنقها من التعب.

وكان الوحي ينزل على رسول الله ﷺ - وهو متكئ على رجل زيد بن ثابت - رضي الله عنه - قال زيد: "حتى تكاد رجلي تنكسر من ثقل القرآن، حتى أقول لا أمشي على رجلي أبداً"

5. أن الرسول في هذه الحالة من الوحي يغط غطيظ النائم ويغيب غيبه كأنها غشية أو إغماء وليست كذلك، وقد روى البخاري أن صفوان بن يعلى - رضي الله عنه - قد جاء إلى الرسول ﷺ - وهو يوحى إليه "وعلى رسول الله ﷺ - ثوب قد أطل به فأدخل رأسه فإذا رسول الله محمر الوجه وهو يغط" 4 الحديث.

وأخرج ابن سعد عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: كان رسول الله ﷺ - إذا نزل عليه الوحي يغط في رأسه ويتردد وجهه "أي يتغير لونه"

6. أن للوحي صوتاً يسمعه الرسول ﷺ - مثل الصلصلة ويسمعه الصحابة - رضي الله عنهم - مثل دوي النحل 6 وفي حديث عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قال: كان إذا نزل على رسول الله ﷺ - يسمع عند وجهه دوي كدوي النحل

قال القسطلاني: "وفائدة هذه الشدة ما يترتب على المشقة من زيادة الزلفى ورفع الدرجات"

"قلت": ولعل هذه الشدة لأن الأجسام أوعية للأرواح ولكل جسم روح تناسب كثافته وحجمه، فإذا غلبت الروحانية على الجسم فإن الجسم ينوء بها فيعاني شدة ويعرق نتيجة الجهد، ويثقل لأن أجسام البشر خلقت لأرواح البشر فإذا سمت الروح وعلت فإن هذا الجسد لا يكاد يحتملها،

• الحالة الثانية:

أن يأتي جبريل عليه السلام إلى الرسول ﷺ - في صورة رجل، كدحية الكلبى أو أعرابي مثلاً فيكلمه كما يكلمه البشر. وقد ورد ذكر هاتين الحالتين في الحديث الذي روته عائشة - رضي الله عنها - أن الحارث بن هشام سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم: كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله ﷺ: "أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشده علي فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول". قالت عائشة رضي الله عنها: ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد وإن جبينه ليتفصد عرقاً.

إمكانية وقوع الوحي:

من المعلوم أن العالم ينقسم إلى قسمين:

- 1- عالم الغيب "أو ما وراء المادة".
- 2- عالم الشهادة:

وقد ضاقت عقول فئة من الناس فلم تؤمن إلا بعالم الشهادة وأنكرت عالم الغيب، وهذا بلا شك قصور في الإدراك وفي وسائله.

ولو تأمل هؤلاء لأدركوا أن فيما أنكروا ما لا يخفى على ذي لب، وأن في عالم الغيب ما هو أقوى ثبوتاً من بعض ما في عالم الشهادة

أرايتم ذلك العقل الذي يؤمنون به هل يستطيعون إثبات وجوده بوسائل الإدراك عندهم، وهل يجروا أحدهم على إنكار وجوده.

وتلكم الروح التي تسري في أجسادهم هل يدعي أحدهم إنكارها ولو مجرد دعوى.

هل يجروا أحدهم على التسوية بين الجسد الميت والجسد الذي تدب فيه الروح، وهل يستطيع بوسائل إدراكه إثبات وجودها.

ألا فليراجع أولئك وسائل الإدراك عندهم وليعلموا قصورها وليبحثوا عن الخلل فيها. وليعلموا -أيضًا- أن هناك عالمًا آخر أوسع من العالم الذي يعيشون فيه. هو عالم الغيب.

وللتمأمل في عالم الشهادة علامات بارزة وأدلة ثابتة لذوي الأبواب تدل دلالة قاطعة على عالم الغيب.

الوحي من عالم الغيب الذي يجب الإيمان به، ومن صفات المؤمنين أنهم يؤمنون بالغيب، ولمن طلب الأدلة العلمية - للطمأنينة القلبية- على إمكانية وقوع الوحي نذكر منها

- 1- الحالة الإنسانية نفسها: فالإنسان نفسه أول ما يولد لا يملك من أمر نفسه شيئًا، فلا يملك التحكم في تحريك يده، ولا رأسه، ولا رجله، ولا تحريك بصره يمنة أو يسرة، حتى برازه يخرج بغير إرادته، فلا حول له ولا قدرة ولا سلطان إلا القدرة على تحريك شفثيه للرضاعة!! لأن هناك من كفاه الحاجة إلى كل حركة وهي أمه التي تقوم بكل حاجته، إلا تلك الحركة فلا يمكن أن تقوم بها ولا يمكن أن يستغنى عنها، فمن الذي ألهمه هذه الحركة، ومن الذي علمه!! لا ريب أن قيوم السموات والأرض هو الذي ألهمه وعلمه، فلا عجب إذاً أن يلهم بعض البشر ما تقوم به حياة البشر عامة وصالح أمرهم.
 - 2- أن بعض الحشرات كالنحل والنمل وغيرهما تأتي بعجائب الأنظمة ودقائق الأمور مما يطول شرحه وبسطه ويدرك المتأمل أنه من المستحيل أن يكون ذلك صادرًا عن تفكير لها أو منبثق عن غريزتها المجردة، بل يوقن أنها لم تصدر في ذلك إلا عن إلهام رباني ووحى إلهي.
- فإذا اقتضت رحمة الله الإلهام إلى تلك الحيوانات والحشرات بما تقوم به حياتها هل يستبعد أحد أن يلهم الله أحدًا من البشر ما تقوم به حياتهم وسعادتهم وهم أعز وأكرم. {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ} 3- وفي المخترعات الحديثة والمكتشفات العلمية ما يقرب إلى الأذهان إمكانية الاتصال؛ فإذا كان الهاتف مثلًا يمكن للإنسان بواسطته أن يخاطب من في أقصى الأرض، وأن يسمع حديثه لا يخفى عليه منه شيء ولا يسمع الحاضرون إلا دويًا كدوي النحل!! فضلًا عن الإذاعة التي تنقل الأصوات إلى ما هو أعم وأوسع، والتلفاز الذي ينقل الصوت والصورة، إذا كان هذا بعض شأن البشر وقدرتهم التي أعطاها الله، فهل يجروا أحد على إنكار إمكانية اتصال الله بأحد أنبيائه وإسماعه كلامه بواسطة أو بغير واسطة، لا ينكر هذا إلا مكابر معاند.

أدلة وقوع الوحي:

وإذا ثبتت إمكانية وقوع الوحي، فإن الأدلة على وقوعه وتحققه كثيرة:

1. فمن الكتاب:

قوله تعالى: {وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ، إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ}. وقوله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ}. وقال سبحانه: {ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ}.

وقال عز وجل: {إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ}. وغير ذلك من الآيات.

2. ومن السنة:

حديث عائشة رضي الله عنها "أول ما بدئ به رسول الله -ﷺ- من الوحي الرؤيا الصالحة -وفي رواية- الصادقة في المنام ... الحديث

وحديث عائشة رضي الله عنها -أيضاً- أن الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ: كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله ﷺ: "أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس" ... الحديث. وغير ذلك من الأحاديث.

3. والدليل العقلي:

أن النبوة والرسالة ثابتة بأدلة كثيرة وبراهين عديدة، وثبت ذلك يقتضي ثبوت الصدق والعصمة للنبي، وقد أخبر الصادق المعصوم بأنه يوحى إليه فيلزم من ذلك ثبوت وقوع الوحي، فكل ما أخبر به الصادق المعصوم فهو حق وثابت، فلا يبقى بعد ذلك شبهة ولا نحوها في إمكانية وقوع الوحي وتكرر وقوعه، والله أعلم

المحاضرة الحادية عشر بعنوان

نزول القرآن الكريم

نزول القرآن الكريم:

في القرآن الكريم آيات ورد فيها النص على نزول القرآن الكريم:

1- فمنها ما يدل على نزول القرآن الكريم جملة واحدة:

- أ- {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ}.
- ب- {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ}.
- ج- {شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ}.

2- ومنها ما يدل على نزوله مفرقًا:

- أ- {وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا}.
- ب- {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ}

أقوال العلماء في نزول القرآن الكريم:

• القول الأول:

أن للقرآن الكريم نزولين: الأول جملة والثاني منجمًا:

النزول الأول:

من اللوح المحفوظ في السماء السابعة إلى بيت العزة في السماء الدنيا. وعلى هذا النزول تحمل الآيات التي تدل على نزوله جملة واحدة وهي:

1- {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ - {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ}.

3- {شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ}.

والنزول الثاني:

نزوله بعد ذلك منجمًا على الرسول ﷺ.

وعلى هذا تحمل الآيات التي تدل على نزوله منجمًا وهي:

1. {وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا}
2. {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا}.

واستدل أصحاب هذا القول بأدلة منها:

- 1- أن عطية بن الأسود سأل ابن عباس -رضي الله عنهما- فقال: "إنه قد وقع في قلبي الشك في قول الله تعالى: {شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ} وقوله: {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ} وقوله: {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَارَكَةٍ} وقد أنزل في شوال وذي القعدة وذي الحجة والمحرم وصفر وربيع الأول، فقال ابن عباس رضي الله عنهما: إنه أنزل في رمضان وفي ليلة القدر وفي ليلة مباركة جملة واحدة، ثم أنزل بعد ذلك على مواقع النجوم رسلاً في الشهور والأيام"
- 2- ما رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: فُصِّلَ القرآن من الذكر فوضع في بيت العزة في السماء الدنيا فجعل جبريل عليه السلام ينزله
- 3- وما رواه عكرمة عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: "أنزل الله القرآن إلى السماء الدنيا في ليلة القدر، فكان الله إذا أراد أن يوحى منه شيئاً أوحاه، أو أن يحدث منه في الأرض شيئاً أحدثه."
- 4- عن سعيد بن جبير عن ابن عباس -رضي الله عنهما- في قوله تعالى: {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ} قال: "أنزل القرآن جملة واحدة في ليلة القدر إلى السماء الدنيا، وكان بمواقع النجوم، وكان الله ينزله على رسول الله ﷺ - بعضه في إثر بعض ...".
- 5- وعن عكرمة عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: "أنزل القرآن جملة واحد إلى السماء الدنيا في ليلة القدر، ثم أنزل بعد ذلك في عشرين سنة وقرأ: {وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا}، {وَفُزْنَا فَرَقْنَاهُ لِنَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا}
- 6- وعن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: "أنزل القرآن ليلة القدر في رمضان إلى السماء الدنيا جملة ثم أنزل نجوماً".
فهذه الأحاديث كلها موقوفة على ابن عباس وأغلب أسانيدھا صحيحة

• القول الثاني

وقال به الشعبي ومحمد بن إسحاق وهو أن للقرآن الكريم نزولاً واحداً بدأ في ليلة القدر وهي ليلة مباركة في شهر رمضان وعلى هذا تدل الآيات الثلاث: {شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ}، {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَارَكَةٍ}، {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ} ثم نزل بعد ذلك منجماً في أوقات مختلفة فليس للقرآن إلا نزول واحد منجم

• القول الثالث:

أن للقرآن الكريم نزولين منجمين.

1. الأول:

من اللوح المحفوظ في السماء السابعة إلى بيت العزة في السماء الدنيا وذلك في ثلاث وعشرين ليلة قدر ينزل في كل ليلة ما سينزل في عامها.

2. الثاني:

نزوله منجماً على الرسول ﷺ - وذلك في ثلاث وعشرين سنة.

وقد قلل بعض الباحثين المعاصرين من هذا القول وقلده آخرون وزعم أنه لا دليل عليه، والحق أن هذا القول لعدد من العلماء المعبرين كالنفس الرازي الذي توقف في الترجيح بينه وبين القول الأول بل أوجب التوقف وقال بهذا القول أيضاً مقاتل بن حيان

قال الحلبي في المنهاج: "أن جبريل كان ينزل منه من اللوح المحفوظ في ليلة القدر إلى السماء الدنيا قدر ما ينزل به على النبي -ﷺ- في تلك السنة إلى ليلة القدر التي تليها إلى أن أنزله كله في عشرين ليلة من عشرين سنة من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا"

• القول الرابع:

ما رواه الماوردي وأخرجه ابن أبي حاتم من طريق الضحاك عن ابن عباس -رضي الله عنهما- أنه قال: نزل القرآن في رمضان وفي ليلة القدر في ليلة مباركة جملة واحدة من عند الله تعالى في اللوح المحفوظ إلى السفارة الكرام الكاتبين في السماء الدنيا فنجمته السفارة على جبريل في عشرين ليلة، ونجمه جبريل على النبي -ﷺ- في عشرين سنة، وكان ينزل على مواقع النجوم أرسالاً في الشهور والأيام.

وقد استغرب بعض العلماء هذا القول وأنكره، فقال ابن حجر رحمه الله تعالى: "وحكى الماوردي في تفسير ليلة القدر أنه نزل من اللوح المحفوظ جملة واحدة، وأن الحفظة نجمته على جبريل في عشرين ليلة، وأن جبريل نجمه على النبي -ﷺ- في عشرين سنة، وهذا أيضاً غريب" بل احتد ابن العربي -رحمه الله تعالى- فقال: "ومن جهالة المفسرين أنهم قالوا: إن السفارة ألقته إلى جبريل في عشرين ليلة وألقاه جبريل إلى محمد عليهما السلام في عشرين سنة. وهذا باطل، ليس بين جبريل وبين الله واسطة، ولا بين جبريل ومحمد صلى الله عليهما واسطة".

وأما أبو شامة المقدسي فقد وصف ما حكاه الماوردي بقوله: "وكأنه قول ثالث غير القولين المتقدمين أو أراد الجمع بينهما فإن قوله: نزل جملة واحدة هو القول الأول، وقوله: فنجمته السفارة على جبريل عشرين ليلة. هو القول الثاني

كأنه فسر قول من قال: نزل في عشرين ليلة، بأن المراد بهذا الإنزال تنجيم السفارة ذلك على جبريل" إلى أن قال عن هذا القول: إنه بعيد مع ما قد صح من الآثار عن ابن عباس: أنه نزل جملة إلى سماء الدنيا

• القول الرابع:

هو القول الأول أن للقرآن الكريم نزولين الأول من اللوح المحفوظ في السماء السابعة إلى بيت العزة في السماء الدنيا، جملة في ليلة واحدة هي ليلة القدر وهي ليلة مباركة في شهر رمضان. والنزول الثاني نزوله منجماً على الرسول -صلى الله عليه وسلم- وذلك في ثلاث وعشرين سنة.

قال ابن حجر عن هذا القول: "هو الصحيح المعتمد" بل حكى القرطبي الإجماع على أن القرآن أنزل جملة واحدة.

وقال في موضع آخر: لا خلاف أن القرآن أنزل من اللوح المحفوظ ليلة القدر -على ما بيناه- جملة واحدة فوضع في بيت العزة في سماء الدنيا ثم كان جبريل -ﷺ- ينزل به منجماً في الأوامر والنواهي والأسباب، وذلك في عشرين سنة". ووصف السيوطي هذا القول بأنه "الأصح الأشهر".

"قلت: وتشهد لصحة هذا القول الأحاديث المروية عن ابن عباس -رضي الله عنهما- وهي كلها صحيحة كما قال السيوطي ولا أثر لكونها موقوفة على ابن عباس؛ لأن قول الصحابي في الأمور الغيبية التي لا مجال للاجتهاد فيها له حكم الرفع.

و إياك أن تفهم أن جبريل عليه السلام أخذ القرآن من اللوح المحفوظ ولم يسمعه من الله، فإن هذا القول باطل. قال ابن تيمية -رحمه الله تعالى-: "فمن قال: إنه منزل من بعض المخلوقات كاللوح والهواء فهو مفتر على الله، مكذب لكتاب الله،

متبع لغير سبيل المؤمنين، ألا ترى أن الله فرق بين ما نزل منه وما نزل من بعض المخلوقات كالمطر بأن قال: {وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً} فذكر المطر في غير موضع وأخبر أنه نزل من السماء والقرآن أخبر أنه منزل منه" في قوله تعالى: {قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ} ، {تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ} ، {حَمْدٌ تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ}

وقال ابن تيمية أيضاً: "ثم إن كان جبريل لم يسمعه من الله وإنما وجدته مكتوباً كانت العبارة عبارة جبريل، وكان الكلام كلام جبريل ترجم به عن الله كما يترجم عن الأخرس الذي كتب كلاماً ولم يقدر أن يتكلم به، وهذا خلاف دين المسلمين".

وقد رد سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم مفتي المملكة -رحمه الله تعالى- على قول السيوطي بأن جبريل أخذ القرآن من اللوح المحفوظ فقال: هذه المقالة اغتر بها كثير من الجهلة وراجت عليهم، والسيوطي -رحمه الله تعالى- مع طول بابه وسعة اطلاعه وكثرة مؤلفاته ليس ممن يعتمد عليه في مثل هذه الأصول العظيمة، وهذه المقالة مبنية على أصل فاسد وهو القول بخلق القرآن؛ وهذه مقالة الجهمية والمعتزلة ومن هنا نحوهم، وهذه المقالة الخاطئة حقيقتها إنكار أن يكون الله متكلماً حقيقة" إلى أن قال: "والقائلون بخلق القرآن منهم من يقول: خلقه في اللوح المحفوظ وأخذ جبريل ذلك المخلوق من اللوح وجاء به إلى محمد -صلى الله صلى عليه وسلم-

ومنهم من يقول: خلقه في جبريل، ومنهم من يقول: خلقه في محمد -ﷺ- إلى غير ذلك من أقوالهم".

فهذا ما ينتهي إليه هذا القول ويثول إليه، وإن لم يكن كثير من الناقلين له يقصدونه.

وإذا كان الرأي الراجح أن للقرآن الكريم نزولين فلنفصل القول في كل نزول على حدة.

النزول الأول : نزول القرآن جملة

كيفية:

من المعلوم أن هذا من الأمور الغيبية التي لا يجوز القول فيها إلا بدليل من الكتاب أو السنة، ولا نعرف نصاً خاصاً في كيفية هذا النزول، وإنما وردت النصوص العامة في بيان كيفية وحي الله إلى ملائكته، وقد سبق بيانها في مبحث الوحي.

ومع هذا فقد نقل أبو شامة المقدسي عن بعض التفاسير كيفية ذلك فقال: ورأيت في بعض التفاسير. قال: وقال جماعة من العلماء: نزل

القرآن جملة واحدة في ليلة من اللوح المحفوظ إلى بيت يقال له بيت العزة، فحفظه جبريل عليه السلام وغشي على أهل السموات من هيبة كلام الله، فمر بهم جبريل وقد أفاقوا فقالوا: {مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ} يعني القرآن، وهو معنى قوله: {حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ} فأتى به جبريل إلى بيت العزة

فأمله جبريل على السفارة الكتبة يعني الملائكة وهو قوله سبحانه وتعالى: {بِأَيْدِي سَفَرَةٍ، كِرَامٍ بَرَرَةٍ} 3 ثم قال أبو شامة: "نقلته من كتاب "شفاء القلوب" وهو تفسير علي بن سهل النيسابوري

دليله:

أما الدليل على نزول القرآن جملة واحدة من اللوح المحفوظ في السماء السابعة إلى بيت العزة في السماء الدنيا فمن القرآن:

أ- قوله تعالى: {شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ}.

ب- قوله تعالى: {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ}.

ج- قوله تعالى: {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ}.

والمراد بالنزول في هذه الآيات كما مر بنا نزول القرآن جملة واحدة من اللوح المحفوظ في السماء السابعة إلى بيت العزة في السماء الدنيا. ومن السنة: الأحاديث المروية عن ابن عباس رضي الله عنهما، وقد سبق بيانها

واسطته:

وهذا أيضًا من الأمور الغيبية التي لم أجد نصًا صحيحًا صريحًا في بيانها، ومن المعلوم أن جبريل عليه السلام هو الملك الموكل بالوحي كما قال تعالى: {قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ} وقال سبحانه وتعالى: {نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ، عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ، بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ}.

وقد مر بنا قول ابن العربي "ليس بين جبريل وبين الله واسطة، ولا بين جبريل ومحمد عليهما السلام واسطة" والله أعلم.

مدته:

أما المدة التي تم فيها النزول الأول نزول القرآن الكريم جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في السماء الدنيا، فهي ليلة واحدة هي ليلة القدر، وهي ليلة مباركة من شهر رمضان، قال تعالى: {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ} وقال سبحانه وتعالى: {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَارَكَةٍ} وقال عز وجل: {شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ}

وليس هناك دليل صحيح على تحديد وقت هذه الليلة غير أنها ليلة القدر في شهر رمضان، من غير تحديد للعام الذي كانت فيه، هل كانت قبل ظهور نبوة محمد -ﷺ- أم بعدها، ومع هذا فقد قال أبو شامة: "الظاهر أنه قبلها وكلاهما محتمل" وخالفه السيوطي وقال: "الظاهر هو الثاني، وسياق الآثار السابقة عن ابن عباس صريح فيه".

"قلت": سياق الآثار المذكورة لا يدل على ذلك ولو من بعيد، فضلًا عن أن تكون صريحة فيه.

حكيمته:

ولنزول القرآن الكريم جملة واحدة من اللوح المحفوظ في السماء السابعة إلى بيت العزة في السماء الدنيا حكم عديدة، منها ما ذكره أبو شامة المقدسي بقوله: "فإن قلت: ما السر في إنزاله جملة إلى السماء الدنيا؟ قلت: فيه تفخيم لأمره وأمر من أنزل عليه، وذلك بإعلام سكان السموات السبع أن هذا آخر الكتب المنزل على خاتم الرسل لأشرف الأمم، قد قربناه إليهم لننزله عليهم، ولولا أن الحكمة الإلهية اقتضت وصوله إليهما منجمًا بحسب الوقائع لهبط به إلى الأرض جملة كسائر الكتب المنزلة قبله، ولكن الله تعالى باين بينه وبينها فجمع له الأمرين: إنزاله جملة ثم إنزاله مفرقًا، وهذا من جملة ما شرف به نبينا ﷺ".

وقال السخاوي: فإن قيل: ما في إنزاله جملة إلى سماء الدنيا؟ قلت: في ذلك تكريم بني آدم وتعظيم شأنهم عند الملائكة، وتعريفهم عناية الله عز وجل بهم ورحمته لهم.

ولهذا المعنى أمر سبعين ألفًا من الملائكة لما أنزل سورة الأنعام أن تزفها وزاد سبحانه في هذا المعنى بأن أمر جبريل عليه السلام بإملائه على الوفيه أيضًا: إعلام عباده من الملائكة وغيرهم أنه علام الغيوب لا يعزب عنه شيء، إذ كان في هذا الكتاب العزيز ذكر الأشياء قبل وقوعها.

وفيه أيضًا: التسوية بينه وبين موسى عليه السلام في إنزال كتابه جملة، والتفضيل لمحمد -ﷺ- في إنزاله عليه منجمًا ليحفظه، قال الله عز وجل: {كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ} وقال عز وجل: {سَنُقَرِّئُكَ فَلَا تَنْسَى}.

وفيه أيضاً: "أن جناب العزة عظيم، ففي إنزاله جملة واحدة وإنزال الملائكة له مفرقاً بحسب الوقائع، ما يوقع في النفوس تعظيم شأن الربوبية".

"قلت": وبهذا يظهر أن لنزول القرآن الكريم جملة واحدة حكماً عديدة منها:

1. تعظيم شأن القرآن الكريم وتقدير أمره.
2. تعظيم شأن الرسول -ﷺ- وتشريفه وتفضيله.
3. تكريم أمة محمد -ﷺ- وتعريف الملائكة بفضلها ومكانتها.
4. إعلام أهل السموات أن هذا آخر الكتب المنزل على خاتم الأنبياء.
5. إعلام الملائكة وغيرهم بأن الله يعلم ما كان وما سيكون وأنه علام الغيوب، ففي القرآن ذكر للأشياء قبل وقوعها وبيان لأحداث قبل حدوثها.
6. بيان منزلة محمد -ﷺ- وفضله على سائر الأنبياء عليهم السلام.

"فإن قلت" وما أثر بيان عظمة القرآن ومكانة الرسول -ﷺ- وأمته عنده

القلت: "إن المسلم ليفرح فرحاً شديداً بدعوة أخيه المسلم الصالحة وتعظم مكانتها بقدر صلاح الداعي واستقامته، فإذا كانت الدعوة ممن لم يعص الله طرفة عين وهم الملائكة، كانت من أفضل الدعاء وأحراها بالإجابة.

والملائكة يصلون على النبي -ﷺ- ويستغفرون لأمة محمد -ﷺ- ويدعون لهم، ويحضرون مجالس الذكر ويكثر في الأزمنة والأماكن الفاضلة، وحضورهم كله خير ودعائهم حري بالإجابة، فعلمهم بمنزلة الرسول -ﷺ- ومكانة أمته وعظمة كتابه

أسباب اختصاص القرآن الكريم بالنزول الأول:

وهو النزول من اللوح المحفوظ في السماء السابعة إلى بيت العزة في السماء الدنيا، وذلك أن الكتب السابقة كانت تنزل جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى الأنبياء إلا القرآن الكريم، والله أعلم.

النزول الثاني: نزول القرآن الكريم منجماً:

كيفية:

سبق في مبحث "الوحي" بيان كيفية وحي الملك إلى الأنبياء عليهم السلام وأنواعه، وأن القرآن كله نزل بالوحي الجلي ولم ينزل منه شيء بالمنام أو الإلهام أو التكليم بلا واسطة.

واسطته:

والقرآن كله نزل بواسطة جبريل عليه السلام، كما قال سبحانه وتعالى: {نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ، عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ، بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ}

من الأدلة على نزول القرآن الكريم منجماً:

- 1- قوله تعالى: {وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا}.
- 2- قوله تعالى: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا}.
- 3- ما هو معلوم بالضرورة من سيرة الرسول -ﷺ- من نزول القرآن عليه مفزاً من بعثته إلى وفاته عليه الصلاة والسلام.

مقدار ما ينزل في كل مرة:

ليس هناك مقدار ثابت لما ينزل من القرآن الكريم في كل مرة، ونفصل الحديث على النحو التالي:

- 1- الآيات.
- 2- قصار السور.
- 3- طوال السور.

المحاضرة الثانية عشر بعنوان

تابع نزول القرآن الكريم

النزول الأول: نزول القرآن الكريم جملة:

كيفيته:

من المعلوم أن هذا من الأمور الغيبية التي لا يجوز القول فيها إلا بدليل من الكتاب أو السنة، ولا نعرف نصًا خاصًا في كيفية هذا النزول، وإنما وردت النصوص العامة في بيان كيفية وحى الله إلى ملائكته، وقد سبق بيانها في مبحث الوحي. ومع هذا فقد نقل أبو شامة المقدسي عن بعض التفاسير كيفية ذلك فقال: ورأيت في بعض التفاسير. قال: وقال جماعة من العلماء: نزل القرآن جملة واحدة في ليلة من اللوح المحفوظ إلى بيت يقال له بيت العزة، فحفظه جبريل عليه السلام وغشي على أهل السموات من هيبه كلام الله، فمر بهم جبريل وقد أفاقوا فقالوا: {مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ} يعني القرآن، وهو معنى قوله: {حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ} فأتى به جبريل إلى بيت العزة فأملأه جبريل على السفارة الكتبة يعني الملائكة وهو قوله سبحانه وتعالى: {بِأَيْدِي سَفَرَةٍ، كِرَامٍ بَرَرَةٍ} ثم قال أبو شامة: "نقلته من كتاب "شفاء القلوب" وهو تفسير علي بن سهل النيسابوري

دليله:

أما الدليل على نزول القرآن جملة واحدة من اللوح المحفوظ في السماء السابعة إلى بيت العزة في السماء الدنيا فمن القرآن:

- أ- قوله تعالى: {شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ}.
- ب- قوله تعالى: {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ}.
- ج- قوله تعالى: {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ}.

والمراد بالنزول في هذه الآيات كما مر بنا نزول القرآن جملة واحدة من اللوح المحفوظ في السماء السابعة إلى بيت العزة في السماء الدنيا. ومن السنة: الأحاديث المروية عن ابن عباس رضي الله عنهما، وقد سبق بيانها

واسطته:

وهذا أيضًا من الأمور الغيبية التي لم أجد نصًا صحيحًا صريحًا في بيانها، ومن المعلوم أن جبريل عليه السلام هو الملك الموكل بالوحي كما قال تعالى: {قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ} وقال سبحانه وتعالى: {نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ، عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ، بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ}.

وقد مر بنا قول ابن العربي "ليس بين جبريل وبين الله واسطة، ولا بين جبريل ومحمد عليهما السلام واسطة" والله أعلم.

مدته:

أما المدة التي تم فيها النزول الأول نزول القرآن الكريم جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في السماء الدنيا، فهي ليلة واحدة هي ليلة القدر، وهي ليلة مباركة من شهر رمضان، قال تعالى: {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ} وقال سبحانه وتعالى: {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ} وقال عز وجل: {شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ}

وليس هناك دليل صحيح على تحديد وقت هذه الليلة غير أنها ليلة القدر في شهر رمضان، من غير تحديد للعام الذي كانت فيه، هل كانت قبل ظهور نبوة محمد -ﷺ- أم بعدها، ومع هذا فقد قال أبو شامة: "الظاهر أنه قبلها وكلاهما محتمل" وخالفه السيوطي وقال: "الظاهر هو الثاني، وسياق الآثار السابقة عن ابن عباس صريح فيه".

"قلت": سياق الآثار المذكورة لا يدل على ذلك ولو من بعيد، فضلاً عن أن تكون صريحة فيه.

حكيمته:

ولنزول القرآن الكريم جملة واحدة من اللوح المحفوظ في السماء السابعة إلى بيت العزة في السماء الدنيا حكم عديدة، منها ما ذكره أبو شامة المقدسي بقوله: "فإن قلت: ما السر في إنزاله جملة إلى السماء الدنيا؟ قلت: فيه تفخيم لأمره وأمر من أنزل عليه، وذلك بإعلام سكان السموات السبع أن هذا آخر الكتب المنزل على خاتم الرسل لأشرف الأمم، قد قربناه إليهم لننزله عليهم، ولولا أن الحكمة الإلهية اقتضت وصوله إليهما منجماً بحسب الوقائع لهبط به إلى الأرض جملة كسائر الكتب المنزلة قبله، ولكن الله تعالى باين بينه وبينها فجمع له الأمرين: إنزاله جملة ثم إنزاله مفرقاً، وهذا من جملة ما شرف به نبينا ﷺ".

وقال السخاوي: فإن قيل: ما في إنزاله جملة إلى سماء الدنيا؟ قلت: في ذلك تكريم بني آدم وتعظيم شأنهم عند الملائكة، وتعريفهم عناية الله عز وجل بهم ورحمته لهم.

ولهذا المعنى أمر سبعين ألفاً من الملائكة لما أنزل سورة الأنعام أن تزفها وزاد سبحانه في هذا المعنى بأن أمر جبريل عليه السلام بإملائه على الوفيه أيضاً: إعلام عباده من الملائكة وغيرهم أنه علام الغيوب لا يعزب عنه شيء، إذ كان في هذا الكتاب العزيز ذكر الأشياء قبل وقوعها.

وفيه أيضاً: التسوية بينه وبين موسى عليه السلام في إنزال كتابه جملة، والتفضيل لمحمد -ﷺ- في إنزاله عليه منجماً ليحفظه، قال الله عز وجل: {كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ} وقال عز وجل: {سَنُقَرِّئُكَ فَلَا تَنسَى}.

وفيه أيضاً: "أن جناب العزة عظيم، ففي إنزاله جملة واحدة وإنزال الملائكة له مفرقاً بحسب الوقائع، ما يوقع في النفوس تعظيم شأن الربوبية".

"قلت": وبهذا يظهر أن لنزول القرآن الكريم جملة واحدة حكماً عديدة منها:

1. تعظيم شأن القرآن الكريم وتفخيم أمره.
2. تعظيم شأن الرسول -ﷺ- وتشريفه وتفضيله.
3. تكريم أمة محمد -ﷺ- وتعريف الملائكة بفضلها ومكانتها.
4. إعلام أهل السموات أن هذا آخر الكتب المنزل على خاتم الأنبياء.
5. إعلام الملائكة وغيرهم بأن الله يعلم ما كان وما سيكون وأنه علام الغيوب، ففي القرآن ذكر للأشياء قبل وقوعها وبيان لأحداث قبل حدوثها.
6. بيان منزلة محمد -ﷺ- وفضله على سائر الأنبياء عليهم السلام.

"فإن قلت" وما أثر بيان عظمة القرآن ومكانة الرسول -ﷺ- وأمرته عنده

القلت: "إن المسلم ليفرح فرحاً شديداً بدعوة أخيه المسلم الصالحة وتعظم مكانتها بقدر صلاح الداعي واستقامته، فإذا كانت الدعوة ممن لم يعص الله طرفة عين وهم الملائكة، كانت من أفضل الدعاء وأحراها بالإجابة.

والملائكة يصلون على النبي -ﷺ- ويستغفرون لأمة محمد -ﷺ- ويدعون لهم، ويحضرون مجالس الذكر ويكثرون في الأزمنة والأماكن الفاضلة، وحضورهم كله خير ودعائهم حري بالإجابة، فعلمهم بمنزلة الرسول -ﷺ- ومكانة أمتة وعظمة كتابه

أسباب اختصاص القرآن الكريم بالنزول الأول:

وهو النزول من اللوح المحفوظ في السماء السابعة إلى بيت العزة في السماء الدنيا، وذلك أن الكتب السابقة كانت تنزل جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى الأنبياء إلا القرآن الكريم، والله أعلم.

النزول الثاني: نزول القرآن الكريم منجماً:

كيفية:

سبق في مبحث "الوحي" بيان كيفية وحي الملك إلى الأنبياء عليهم السلام وأنواعه، وأن القرآن كله نزل بالوحي الجلي ولم ينزل منه شيء بالمنام أو الإلهام أو التكليم بلا واسطة.

واسطته:

والقرآن كله نزل بواسطة جبريل عليه السلام، كما قال سبحانه وتعالى: {نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ، عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ، بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ}.

دليله:

من الأدلة على نزول القرآن الكريم منجماً:

- 1- قوله تعالى: {وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا}.
- 2- قوله تعالى: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا}.
- 3- ما هو معلوم بالضرورة من سيرة الرسول -ﷺ- من نزول القرآن عليه مفرقاً من بعثته إلى وفاته عليه الصلاة والسلام.

مقدار ما ينزل في كل مرة:

ليس هناك مقدار ثابت لما ينزل من القرآن الكريم في كل مرة، ونفصل الحديث على النحو التالي:

- (1) الآيات.
- (2) قصار السور.
- (3) طوال السور.

أما بالنسبة للآيات فقد ينزل خمس آيات أو أكثر أو أقل، بل قد ينزل بعض آية كقوله تعالى: {مَنْ الْفَجْرُ} من قوله تعالى: {وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ} 1، 2 وكقوله تعالى: {غَيْرِ أُولِي الضَّرَرِ} 3 ولعل غالب ما ينزل خمس آيات وعشر آيات لما رواه أبو نضرة قال: كان أبو سعيد الخدري -رضي الله عنه- يعلمنا القرآن خمس آيات بالعادة وخمس آيات بالعشي، ويخبر أن جبريل نزل بالقرآن خمس آيات خمس آيات وما رواه أبو خلدة عن أبي العالية قال: قال عمر رضي الله عنه: تعلموا القرآن خمساً خمساً فإن جبريل عليه السلام نزل بالقرآن على النبي -ﷺ- خمساً خمساً وقال أبو العالية: تعلموا القرآن خمس آيات؛ فإن النبي -ﷺ- كان يأخذه من جبريل خمساً خمساً.

أما قصار السور فمنها ما كان ينزل جملة واحدة كالفاتحة والمعوذات، ومنها ما ينزل مفرقاً كسورة العلق والمدثر والضحي.

وأما السبع الطول فلم ينزل منها سورة جملة واحدة إلا سورة الأنعام كما روي عن ابن عباس -رضي الله عنهما- أنه قال: "نزلت سورة الأنعام بمكة ليلاً جملة، ونزل معها سبعون ألف ملك يجأرون حولها بالتسبيح".

مدته:

اختلف في مدة نزول القرآن منجماً على الرسول -ﷺ- تبعاً للاختلاف في مدة بعثة الرسول -ﷺ- وهو في مكة، فقيل: عشرين سنة، وقيل: ثلاث وعشرين سنة، وقيل: خمس وعشرين سنة.

فمن المعلوم أن مدة الوحي بالرؤيا الصالحة كانت ستة أشهر ثم فتر الوحي في سنتين ونصف، قال السهيلي رحمه الله تعالى: "جاء في بعض الروايات المسندة أن مدة الفترة سنتان ونصف، وفي رواية أخرى أن مدة الرؤيا ستة أشهر، فمن قال مكث عشر سنين حذف مدة الرؤيا والفترة ومن قال ثلاث عشرة أضافهما".

وروي البخاري عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: "بعث رسول الله -ﷺ- لأربعين سنة فمكث بمكة ثلاث عشرة سنة يوحى إليه، ثم أمر بالهجرة فهاجر عشر سنين، ومات وهو ابن ثلاث وستين".

وروي عن عائشة وابن عباس -رضي الله عنهما- قالوا: لبث النبي -ﷺ- بمكة عشر سنين ينزل عليه القرآن وبالمدينة عشراً قال ابن حجر رحمه الله تعالى: "وهذا ظاهره أنه ﷺ عاش ستين سنة إذا انضم إلى المشهور أنه بعث على رأس الأربعين، لكن يمكن أن يكون الراوي ألغى الكسر" ثم قال: "ويمكن أن يجمع بينه وبين المشهور بوجه آخر وهو أنه بعث على رأس الأربعين فكانت مدة وحي المنام ستة أشهر إلى أن نزل عليه الملك في شهر رمضان من غير فترة، ثم فتر الوحي، ثم تواتر وتتابع فكانت مدة تواتره وتتابعه بمكة عشر سنين من غير فترة".

وعلى هذا يظهر أن القول: إن مدة النزول عشرون عاماً أو ثلاثة وعشرون عاماً، كالقول الواحد، وهو الصواب والله أعلم.

الحكمة في نزول القرآن الكريم منجماً:

ولنزول القرآن منجماً حكم عديدة وفوائد كثيرة:

أولاً: تثبت قلب الرسول ﷺ

قال سبحانه وتعالى: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً}.

حين بعث الله عز شأنه عبده ورسوله محمداً -ﷺ- بعثه في أمة صلبة كصلابة أرضها، قاسية كقسوتها، شامخة كشموخ جبالها، بعثه لهذه الأمة ليس لأمر تافه، أو شأن حقير، بل في شأن عظيم وأمر خطير، بعثه ليسفه أحلامها ويحطم أوثانها، ويهدم أصنامها، وهي أعز ما يملكون وأقدس ما يعتقدون. ومن ذا الذي يجرو على بعض هذا فضلاً عنه كله وأكثر منه.

تصدى محمد بن عبد الله -ﷺ- لهذه المهمة فكان أصلب منهم وأقوى، وأحكم منهم وأهدى، جمع بين الصلاة والهدى، والقوة والحكمة حتى اشتكوه إلى عمه أبي طالب الذي قال له: يا بن أخي إن بني عمك زعموا أنك تؤذيهم في ناديهم وفي مسجدهم فانتبه عن ذلك، قال: فلحظ رسول الله -ﷺ- ببصره إلى السماء فقال: "ما أنا بأقدر على أن أدع لكم ذلك على أن تشعلوا لي منها شعلة -يعني الشمس-".

نعم إنها قوة إيمان، وصلابة عقيدة، وهذه القوة وتلك الصلابة بحاجة إلى من يسوسها ويدعمها، ويرعاها ويحفظها، حتى لا تضعف أمام التيارات العاصفة أو وحكمته، وكان في إنزال القرآن منجماً دعماً لتلك القوة، وتنبيهاً لتلك الصلابة، وترسيخاً لتلك الحكمة.. {كَذَلِكَ لِنُنَبِّئَ بِهِ فُؤَادَكَ}.

والأنبياء عليهم السلام كلهم بشر {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِي إِلَيْهِمْ} يأكلون كما نأكل ويمشون في الأسواق كما يمشي البشر {وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ} ويتزوجون ويولد لهم ذرية {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً} ويعتريهم ما يعتري البشر، من الخوف، والحزن والهم، والفرح والسرور، والضحك، والبكاء ونحو ذلك، وهم بحاجة إلى من يواسيهم، ويثبتهم.

وكان لتثبيت قلب الرسول -ﷺ- صور متعددة منها:

(1) إخباره أن ما جرى له من الأذى والتكذيب قد جرى للأنبياء السابقين من قبله {وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبْرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا} ، {فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ} والكتاب المنير {ومن طبيعة البشر أن المصيبة تخف إذا كانت عامة وتكون أشد إذا كانت خاصة هذا في الدنيا دون الآخرة، قال سبحانه وتعالى: {وَلَنْ يَنْفَعَكُمْ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنْتُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ}.

وإعلام الله تعالى لنبيه -ﷺ- بأن ما جرى له قد جرى للأنبياء السابقين من أسباب تثبيت قلبه وتجدد عزمه.

(2) أمر الله تعالى لنبيه -ﷺ- بالصبر:

فمن المعهود أن الإنسان إذا أصابته مصيبة وكان بجانبه أحد أصحابه تنهار أمام ايربت على كتفه ويأمره بالصبر والاحتساب ويواسيه ويسليه، فإن هذا من أقوى الأسباب لسلوانه.

فأمر الله عز وجل لنبيه -ﷺ- بالصبر من أقوى الأسباب لتثبيت قلبه سيما أن الأمر بالصبر كان مقترناً أحياناً بإخباره أن ما جرى له قد جرى للأنبياء السابقين وأنهم صبروا قال تعالى: {وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبْرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا} ، {فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولَا الْعِزْمِ مِنَ الرُّسُلِ}.

وذلك أن حبس النفس بالحزن والتضييق عليها بالهم من أقوى الدواعي لفتورها ويأسها، فنهى الله نبيه عن الحزن والضيق من مكرهم وما يلاقيه من أذاهم {وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ} وقال تعالى: {وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ} وقال سبحانه: {فَلَا يَحْزَنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ} وقال سبحانه: {يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزَنُكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ}.

ولا شك أن للحزن تأثيراً على صاحبه ولو كان صابراً فيعقوب عليه السلام حين فقد ابنه يوسف قال: {فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ} وحين فقد ابنه الآخر قال: {فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ} إلا أنه حزن وتأسف على يوسف {وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ} فكان أثر الحزن {وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ} للضربات المتتالية

وبهذا ندرك الحكمة من نهى الرسول -ﷺ- عن الحزن والضيق مما يمكرون لما لهذا من أثر في إعاقة مسار الدعوة، ولما في أمره بالصبر ونهيه عن الحزن من شد لأزره وتجديد لعزمه.

(3) إخباره بأن الله يعصمه من الناس:

وذلك أنه إذا علم أن ما جرى له قد جرى للأنبياء السابقين من قبله، وأنهم صبروا فوطن نفسه على الصبر واستمر في الدعوة ولم يصبه الهم ولا الحزن، لكنه يخشى أن يقتله قومه قبل أن يتم دعوته وهو الحريص عليهم الرحيم بهم، فأخبره الله بالعصمة من ذلك {وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ} فكانت هذه البشرية من أعظم الدوافع إلى الاستمرار في الدعوة.

أرأيتم ذلك الرجل الذي يتردد في فعل أمر ما فيجد من يشجعه ويطمئنه بأنه لن يصيبه أي مكروه ولا ضرر وأنه سيكون معه ويأخذ بيده ويشد أزره ولا يزال به حتى يجد الطمأنينة، فكيف إذا كانت البشرية من الله والعصمة من عنده عز شأنه. **ويجد الرسول -ﷺ- أثر هذه البشرية {وَاللَّهُ يَعَصِيكَ مِنَ النَّاسِ} في كثير من الصور والمشاهد:**

- أ- حين اجتمع صناديد قريش وقبائل العرب عند بابيه ليضربوه ضربة رجل واحد فيتفرق دمه في القبائل فخرج من بين صفوفهم وجعل فوق رؤوسهم التراب ولم يره أحد {وَاللَّهُ يَعَصِيكَ مِنَ النَّاسِ} .
- ب- ويذهب مع صاحبه إلى الغار ويمر به المشركون يبحثون عنهما حتى قال أبو بكر رضي الله عنه: "لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا، فقال الرسول ﷺ: "ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما" ومع هذا القرب لم يرهما أحد {وَاللَّهُ يَعَصِيكَ مِنَ النَّاسِ} .
- ج- ويلحق بهما سراقة بن مالك ممتطياً جواده ومعه رمحه حتى إذا اقترب منهما ساخت يدا فرسه في الأرض حتى بلغت الركبتين وعندما أخرجت يديها؛ إذا لأثرهما عثان ساطع في السماع مثل الدخان فأدرك سراقة أنه منع عنهما {وَاللَّهُ يَعَصِيكَ مِنَ النَّاسِ} .
- د- ويأكل ﷺ من شاة مسمومة أهدتها إليه يهودية فيموت صاحبه وينجو من الموت {وَاللَّهُ يَعَصِيكَ مِنَ النَّاسِ} .
- هـ- وحاول اليهود قتل النبي -ﷺ- بإلقاء حجر من جدار كان ﷺ تحته فجاءه الوحي بذلك فقام من مجلسه {وَاللَّهُ يَعَصِيكَ مِنَ النَّاسِ} .

والصور كثيرة والمشاهد عديدة لحفظ الله تعالى لنبيه من محاولات الاغتيال ولا شك أن هذه البشرية من الله سبحانه وتعالى لنبيه -ﷺ- ورؤية الرسول -ﷺ- لفشل هذه المحاولات من أقوى الدوافع للطمأنينة والاستمرار في الدعوة وتجدد العزم

(4) تبشيره بالنصر والتمكين:

قال تعالى: {كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ} وقال ﷺ: {وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} وقال عز وجل: {فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ} وقال سبحانه وتعالى: {إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ} 4 وقال عز وجل: {إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا

ووعده سبحانه بالنصر {وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا} {وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ} وقد تحقق نصر الله، فقد نصر عبده وأعز جنده {إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ} السورة.

والوعد بالنصر والتمكين بعد الإخبار بالعصمة من أدعى الدواعي لتثبيت القلب وتجدد العزم.

تلكم بعض صور تثبيت قلب الرسول -ﷺ- وهي الحكمة الأولى من حكم نزول القرآن منجماً متتبّعاً مسار الدعوة وسيرة الرسول -ﷺ- ينزل عليه بين حين وآخر ما يثبت قلبه ويجدد عزمه.

وقد أشار أبو شامة إلى هذه الحكمة من نزول القرآن منجماً فقال: "إن الوحي إذا كان يتجدد في كل حادثة كان أقوى للقلب وأشد عناية بالمرسل إليه. ويستلزم ذلك كثرة نزول الملك عليه وتجديد العهد به وبما معه من الرسالة الواردة من ذلك الجنب العزيز فيحدث له من السرور ما تقصر عنه العبارة. ولهذا كان أجود ما يكون في رمضان لكثرة نزول جبريل عليه السلام عليه

من المعلوم أن الأمة التي بعث فيها الرسول -ﷺ- كانت أمية، وكان الرسول -ﷺ- أميًا {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ} وقال عن نبيه ﷺ: {الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ} وقال ﷺ: {قَامُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ}.

وليس من السهل على الأمي وعلى الأميين تلقي كتاب كامل دفعة واحدة بل الحكمة في التدرج في تنزيل القرآن والتدرج في تعليمهم إياه، فكان ينزل كما مر بنا خمس آيات خمس آيات أو سورة سورة. وهذا ما يناسب أحوالهم، ولو نزل عليهم جملة واحدة لشق عليهم حفظه وفهمه فضلاً عن العمل به، قال أبو شامة المقدسي -رحمه الله تعالى- في بيان هذه الحكمة: "وكان النبي -ﷺ- أميًا لا يكتب ولا يقرأ ففرق عليه القرآن ليتيسر عليه حفظه، ولو نزل جملة لتعذر عليه حفظه في وقت واحد على ما أجرى الله تعالى به عوائد خلقه، والتوراة نزلت على موسى عليه السلام مكتوبة وكان كاتبها قارئاً وكذا كان غيره، والله أعلم".

ثم أورد سؤالاً وأجاب عليه فقال: "فإن قلت: كان في القدرة إذ أنزله جملة أن يسهل عليه حفظه دفعة واحدة. قلت: ما كل ممكن في القدرة بل لازم وقوعه، فقد كان في قدرته تعالى أن يعلمه الكتابة والقراءة فيثانيًا: تيسير حفظه وفهمه:

من المعلوم أن الأمة التي بعث فيها الرسول -ﷺ- كانت أمية، وكان الرسول -ﷺ- أميًا {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ} وقال عن نبيه ﷺ: {الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ} وقال ﷺ: {قَامُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ}.

وليس من السهل على الأمي وعلى الأميين تلقي كتاب كامل دفعة واحدة بل الحكمة في التدرج في تنزيل القرآن والتدرج في تعليمهم إياه، فكان ينزل كما مر بنا خمس آيات خمس آيات أو سورة سورة. وهذا ما يناسب أحوالهم، ولو نزل عليهم جملة واحدة لشق عليهم حفظه وفهمه فضلاً عن العمل به، قال أبو شامة المقدسي -رحمه الله تعالى- في بيان هذه الحكمة: "وكان النبي -ﷺ- أميًا لا يكتب ولا يقرأ ففرق عليه القرآن ليتيسر عليه حفظه، ولو نزل جملة لتعذر عليه حفظه في وقت واحد على ما أجرى الله تعالى به عوائد خلقه، والتوراة نزلت على موسى عليه السلام مكتوبة وكان كاتبها قارئاً وكذا كان غيره، والله أعلم".

ثم أورد سؤالاً وأجاب عليه فقال: "فإن قلت: كان في القدرة إذ أنزله جملة أن يسهل عليه حفظه دفعة واحدة. قلت: ما كل ممكن في القدرة بل لازم وقوعه، فقد كان في قدرته تعالى أن يعلمه الكتابة والقراءة في لحظة واحدة، وأن يلهمهم الإيمان به، ولكنه لم يفعل، ولا معترض عليه في حكمه {وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى}، {وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ}

ثالثًا: مسابقة الحوادث:

فمن المعلوم أن عجلة الحياة تدور، والحوادث تتجدد، وتقع الوقائع، والمسلمون في معمعة هذه الأحداث ووسط هذه الوقائع بحاجة إلى من يرشدهم إلى الحق ويدلهم إلى الصواب.

فكان في نزول القرآن الكريم منجماً مسابقة لهذه الحوادث والوقائع وعلاجاً لما يطرأ في حياة المسلمين من قضايا ومشاكل، ولهذه الحوادث والوقائع صور متعددة نذكر منها:

1) الإجابة على ما يطرأ من أسئلة:

وهذه الأسئلة تقع من الكفار والمشركين للثبوت من رسالته وامتحانه أو لتجيزه بزعمهم، وتقع من المسلمين لغرض معرفة الحق والعمل به.

وتكون هذه الأسئلة أيضًا عن أمور ماضية وأحداث سابقة أو حاضرة أو مستقبلية.

فمن الأسئلة عن أمور ماضية ما روي أن اليهود اجتمعوا فقالوا لقريش حين سألوهم عن شأن محمد وحاله: سلوا محمدًا عن الروح، وعن فتية فقدوا في أول الزمان، وعن رجل بلغ مشرق الأرض ومغربها، فإن أجاب في ذلك كله فليس بنبي، وإن لم يجب في ذلك كله فليس بنبي، وإن أجاب في بعض ذلك وأمسك عن بعضه فهو نبي، فسألوه عنها، فأنزل الله تعالى في شأن الفتية: {أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا} إلى آخر القصة؛ وأنزل في الرجل الذي بلغ شرق الأرض وغربها: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ ذِي الْقُرْنَيْنِ} 2 إلى آخر القصة، وأنزل في الروح قوله تعالى: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ}

وقد تكون الأسئلة عن أمور حاضرة ومشاهدة كقوله تعالى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ} وقوله سبحانه: {يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ} وقوله سبحانه: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ} وقوله سبحانه وتعالى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ} وقوله عز وجل: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى} وقوله تبارك وتعالى: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ} وغير ذلك من الأسئلة.

وقد تكون الأسئلة عن أمور مستقبلية كقوله تعالى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ} وقوله ﷺ: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا}.

وفي نزول القرآن منجمًا تتبع لتلك الأسئلة وما يجد منها والإجابة عنها في حينها.

(2) مجازاة الأفضية والوقائع في حينها ببيان حكم الله فيها عند حدوثها:

وذلك أن الأفضية والأحداث لم تقع جملة واحدة وإنما حدثت متفرقة في أوقات مختلفة وأماكن متعددة، فالمناسب أن ينزل القرآن كذلك منجمًا مفرقًا في أوقات مختلفة وأماكن متعددة معالجًا لكل قضية في حينها فمن ذلك:

- أ- حادثة الإفك وهي الحادثة التي رمى فيها نفر من المنافقين -وتبعهم بعض المسلمين- عائشة رضي الله عنها بما برأها الله منه في القصة المشهورة، فأنزل الله قوله سبحانه: {إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ}... الآيات.
- ب- وقصة خولة بنت ثعلبة التي طهر منها زوجها أوس بن الصامت فشكت ذلك إلى النبي ﷺ -وقالت: يا رسول الله، أبلى شبابي، ونثرت له بطني، حتى إذا كبرت سني وانقطع ولدي؛ طاهر مني، اللهم إني أشكو إليك، فما برحت حتى نزل جبريل عليه السلام بهذه الآيات: {قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ}

(3) تنبيه المسلمين إلى أخطائهم وإرشادهم إلى الصواب والكمال:

وقد يقع ذلك من أحد أفراد الصحابة أو جماعة منهم أو من الرسول ﷺ -فيرشده ربه إلى الأكمل والأتم لمقامه صلى الله عليه وسلم.

فهذا ثابت بن قيس -رضي الله عنه- لما نزل قوله تعالى: {لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ} قال: أنا الذي كنت أرفع صوتي فوق صوت النبي وأنا من أهل النار، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ -فقال: "هو من أهل الجنة".

ولما تزوج الرسول ﷺ -زينب بنت جحش دعا القوم فطعموا، ثم جلسوا يتحدثون، قال: فأخذ كأنه يتهيأ للقيام فلم يقوموا، فلما رأى ذلك قام. فلما قام قام من القوم ... ففعد ثلاثة وأن النبي ﷺ -جاء ليدخل فإذا القوم جلوس ... فنزل قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرِ نَاطِرٍ إِنَاءَهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا}.

وقد يقع من الرسول -ﷺ- ما يوجهه الله بعده إلى ما فيه الخير والكمال كما وقع من الرسول -ﷺ- حين جاءه ابن أم مكتوم وهو يخاطب أحد عظماء المشركين، قالت عائشة -رضي الله عنها- فجعل رسول الله -ﷺ- يعرض عنه ويقبل على الآخر ويقول: أترى ما أقول بأساً؟ فيقول: لا. ففي هذا أنزلت عبس وتولى.

(4) كشف حال المنافقين وهتك أستارهم حتى يحذرهم المسلمون ويأمنوا مكرهم وشرهم:

وذلك أن ركب الدعوة جاد في سيره في مآمن من شر عدوه الظاهر، لكن الخطر يكمن فيمن يندس بين المسلمين يخالطهم ويخالطونه، ويسمع حديثهم، ويعلم أسرارهم، ويكيد لهم وهم يحسبونه منهم، فاقتضت حكمة الله تعالى أن يكون في نزول القرآن منجماً كشف لهؤلاء المنافقين وهتك لأستارهم وتشنيع عليهم.

فإذا نطق أحدهم قولاً مناوئاً للرسول -ﷺ- نزل فيه القرآن وكشف نفاقه حتى يحذرهم المسلمون ويرتدع

والآيات في هذا الموضوع كثيرة، ففي أول سورة البقرة ثلاث عشرة آية متتالية في المنافقين.

وسورة التوبة تسمى "الفاضة" كما روى سعيد بن جبيرة قال: قلت لابن عباس: سورة التوبة. قال: التوبة هي الفاضحة، ما زالت تنزل: ومنهم ومنهم حتى ظنوا أنها لم تبقى أحداً منهم إلا ذكر فيها.

ويريد ابن عباس -رضي الله عنهما- بقوله: "ومنهم منهم" الآيات الكثيرة في سورة التوبة التي تحدثت عن المنافقين كقوله تعالى: {وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا} وقوله سبحانه: {وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ} وقوله تعالى: {وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَكُمْ} وقوله: {وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ} وغير ذلك..

بل أنزل الله في المنافقين سورة كاملة سماها باسمهم سورة "المنافقون".

وفي نزول القرآن منجماً تتبع لهذه الحالات في المجتمع الإسلامي وتنقية لطريق الدعوة.

(5) رد شبهات أهل الكتاب وإبطال كيدهم للإسلام والمسلمين:

فقد كان المسلمون يعيشون في المدينة ويخالطهم اليهود وهم أهل كيد ومكر وخبت وحقد على الإسلام والمسلمين، بذلوا كل ما يستطيعون لبث الفرقة بين المسلمين وبث الشبهات والشكوك في عقائد الإسلام، فكان في نزول القرآن منجماً تتبع لخططهم وكشف لمآربهم ومحق لشبهاتهم والآيات في هذا المعنى كثيرة كقوله تعالى: {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُصَدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبِعُونَهَا عَوْجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ}

وحذر المسلمين منهم: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ} 2 {وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} 3 {وَدَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ} 4 {مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ} 5 {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ} 6 {هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ يُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ} وغير ذلك من الآيات

رابعاً: التدرج في التشريع وتربية الأمة:

لو تدبر الإنسان في نفسه لوجد أنه في كل شأن من شئونه يبدأ من الأدنى إلى الأعلى بالتدرج؛ فحين يولد أول ما يولد لا يستطيع أن يتحكم بحركات يديه ولا رجليه ثم يبدأ التحكم باليدين، وهكذا إلى أن يبدأ بالقدرة على الجلوس ثم القيام ثم السير ثم الجري والقفز، وفي الأكل شرابه أول ما يشرب حليب أمه الخفيف ثم تزداد كثافته ويرتقي بالأكل من السوائل

إلى اللحوم وغيرها. وفي نطقه يولد لا يحسن غير البكاء ثم التبسم ثم الصوت غير المركب وهكذا إلى أن يصبح متكلمًا وهكذا في التعلم وفي كل شأن من شئونه.

والمجتمعات في رقيها تشبه إلى حد كبير حالة الأفراد ليس من السهل تحولها من حال إلى حال دون تدرج. وقد اقتضت حكمة الله تعالى مراعاة حال الأمة في قدرتها وطاقاتها فجاءت الأحكام والتشريعات متدرجة حسب طاقة الأمة وما تقتضيه الحكمة الإلهية، فجاء نزول القرآن الكريم منجمًا مطابقًا تمام المطابقة لما فيه الحكمة.

وأخبرت أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- عن هذا حين قالت: "إنما نزل أول ما نزل منه سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء لا تشربوا الخمر لقالوا لا ندع الخمر أبدًا، ولو نزل لا تزنا لقالوا لا ندع الزنا أبدًا".

فبدأ أولًا بتنقيتهم من أدران الشرك بنبيذ الأوثان والأصنام وبيان أنها لا تضر ولا تنفع، ثم غرس في قلوبهم العقيدة الصحيحة وهي توحيد الله وإفراده بالعبادة.

خامسًا: استمرار التحدي والإعجاز:

وتجدد ثبوت الإعجاز عند تجدد عجزهم عن الإتيان بمثل كل آية تنزل على مر الأيام والسنون مدة نزول القرآن.

وذلك أن تكرر نزول القرآن مرات عديدة في أماكن مختلفة وأزمان متغايرة ومتباعدة مدة نزول القرآن وفي كل مرة يتحداهم أن يأتوا بمثله، فهذا دليل على تكرر الإعجاز واستمرار التحدي، ولو نزل القرآن جملة واحدة وتحداهم به عند النزول لكان التحدي وقع مرة واحدة والإعجاز كذلك. فكان في تنجيم نزوله وتكرره استمرار للتحدي وتكرار للإعجاز. ولا شك أن الذي يستطيع تكرار عمل ما يعجز عنه الناس أقوى إعجاز ممن يفعله مرة واحدة لا يعيدها أخرى.

سادسًا: الدلالة على مصدر القرآن، وأنه من الله تعالى وليس في قدرة البشر:

وقد أوضح الشيخ الزرقاني -رحمه الله تعالى- هذه الحكمة فقال: وبيان ذلك: أن القرآن تقرؤه من أوله إلى آخره، فإذا هو محكم السرد، دقيق السبك، متين الأسلوب، قوي الاتصال، أخذ بعضه برقاب بعض في سورة وآياته وجمله، يجري دم الإعجاز فيه من ألفه إلى يائه كأنه سبيكة واحدة، ولا يكاد يوجد بين أجزائه تفكك، ولا تخاذل، كأنه حلقة مفرغة، أو كأنه سمط وحيد، وعقد فريد، يأخذ بالإبصار، نظمت حروفه وكلماته، ونسقت جملة وآياته، وجاء آخره مساوقًا لأوله، وبدأ أوله مواتيًا لآخره.

وهنا نتساءل: كيف اتسق للقرآن هذا التأليف المعجز؟ وكيف استقام له هذا التناسق المدهش؟ على حين أنه لم ينزل جملة واحدة، بل تنزل آحادًا مفرقة، تفرق الوقائع والحوادث في أكثر من عشرين سنة.

الجواب: أننا نلمح هنا سرًا جديدًا من أسرار الإعجاز، ونشهد سمة فذة من سمات الربوبية، ونقرأ دليلًا ساطعًا على مصدر القرآن وأنه كلام الواحد اوبيين الأستاذ حيدر قفة هذا الوجه من الإعجاز فقال: "إن القرآن نزل منجمًا مفرقًا في ثلاث وعشرين سنة تقريبًا، وهذه مدة طويلة يعجز أي أديب أو كاتب أو بليغ أن يحتفظ بأسلوبه وبيانه، وخصائصه البلاغية فلا بد أن نجد في أسلوبه اختلافًا ولو للأحسن والأرقى، مما يظهر الضعف والركاكة والإسفاف في بداية الأمر، والجزالة وحسن السبك في نهايته. فهل وجدوا ذلك في القرآن؟ حاشا لله وصدق الله العظيم: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾

الاستفادة من نزول القرآن الكريم منجماً في مجال التربية والتعليم:

ينبغي أن يستفاد في العملية التعليمية في منهج القرآن الكريم في تربية هذه الأمة وتهذيب أخلاقها وتصحيح معتقداتها وتحويلها من أمة الجهل والجاهلية إلى أمة الكتاب والقلم.

فقد كان الناس في غاية من الجهل والانحطاط في كثير من شئون حياتهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية فأنزل الله عليهم القرآن ولم يزل يرتقي بهم في سامي المبادئ وعالي الأخلاق، حتى أصبحوا في أعلى الدرجات بل صاروا خير أمة أخرجت للناس بعدما كانوا ما كانوا.

وسلك القرآن الكريم في ذلك منهجاً فريداً، ومسلكاً حميداً فبدأ بتصحيح العقيدة وغرس المبادئ الصحيحة، ثم تدرج في أحكام العبادات حتى تمامها وكمالها.

وفي التربية والتعليم ينبغي الاستفادة من هذا المنهج الحكيم، فمن المعلوم أن الأول: معرفة المستوى الذهني للطلاب:

الأول: معرفة المستوى الذهني للطلاب:

فلا بد قبل التعليم من معرفة المستوى الذهني لديهم حيث يكون نقطة الانطلاق بهم، وإعطائهم ما يتناسب مع قدراتهم الذهنية وطاقتهم الفكرية.

فإنهم إن أعطوا أقل من مستواهم الذهني ملوه وهجروه وإن أعطوا ما هو فوق مستوى إدراكهم وفهمهم عجزوا عنه ونفروا منه.

الثاني: تنمية قدراتهم:

أ- الذهنية. ب- النفسية. ج- الجسمية.

فإذا عرف مستواهم الذهني وما يناسبهم من المادة العلمية بدأ التدرج في تلقينهم وتعليمهم ما يراد تعليمه مراعيًا النواحي الذهنية والجسمية والنفسية.

فالمنهج الدراسي الذي يوضع من غير معرفة للمستوى الذهني للطلاب، ثم تنمية مداركهم العامة ببناء الجزئيات على الكليات والتفصيل بعد الإجمال؛ منهج فاشل.

المحاضرة الثالثة عشر

أول ما نزل وآخر ما نزل

أول ما نزل وآخر ما نزل:

منذ أن نزل أول شعاع من نور القرآن الكريم والمسلمون يولونه عنايتهم واهتمامهم إلى يومنا هذا، بل إلى يوم الدين، حتى بلغت عنايتهم أن عرفوا ما نزل بمكة وما نزل بالمدينة وما نزل بالطائف وما نزل بالجحفة وما نزل بببيت المقدس وما نزل بالحديبية، وما نزل في الليل وما نزل بالنهار وما نزل في الصيف وما نزل في الشتاء، وما نزل في السفر وما نزل في الحضر، ومن ذلك معرفة أول ما نزل وآخر ما نزل.

ومعرفة ذلك علم توقيفي يعتمد على النقل عن الصحابة أو التابعين ولا مجال للاجتهاد فيه إلا للترجيح بين الأدلة والنقول.

ويرجع الاختلاف في معرفة أول ما نزل ومعرفة آخر ما نزل إلى أن صاحب كل قول يخبر عن حد علمه أو عما بلغه من الدليل، أو أنه أراد أولية مخصوصة ففهمت على غير ما أراد ونحو ذلك.

وبحث العلماء أول وآخر ما نزل من القرآن على الإطلاق، وأول وآخر ما نزل في معاني خاصة كأول وآخر ما نزل في الأطعمة وأول وآخر ما نزل في الأشربة، وأول وآخر ما نزل في الخمر، وأول وآخر ما نزل في القتال، وأول وآخر ما نزل في الربا، وأول وآخر سورة نزلت كاملة وغير ذلك.

أقوال العلماء في أول ما نزل من القرآن على الإطلاق

للعلماء في ذلك أقوال كثيرة منها:

القول الأول:

إن أول ما نزل من القرآن "صدر سورة اقرأ"، وهو قوله تعالى: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ، خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ، اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ، الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ، عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ} وهذا القول أصح الأقوال وأرجحها، ومن أدلته:

- 1) ما رواه البخاري ومسلم عن عائشة -رضي الله عنها- أنها قالت: أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبيب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه -وهو التعبد- الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها، حتى جاءه الحق، وهو في غار حراء، فجاءه الملك فقال له: اقرأ، قال: "ما أنا بقارئ"، قال: "فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني"، فقال: اقرأ، "قلت: ما أنا بقارئ"، فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني " فقال: اقرأ، " فقلت: ما أنا بقارئ فأخذني فغطني الثالثة ثم أرسلني فقال: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ، خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ، اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ}، فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده.
- 2) ما رواه الحاكم والبيهقي عن عائشة رضي الله عنها قالت: أول سورة نزلت من القرآن {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ}.

- 3) ما رواه الحاكم والطبراني عن أبي رجاء العطاردي قال: كان أبو موسى الأشعري يقرئنا فيجلسنا حلقاً وعليه ثوبان أبيضان، فإذا تلا هذه السورة {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ} . قال: هذه أول سورة نزلت على محمد صلى الله عليه وسلم.

(4) ما رواه أبو عبيد في فضائل القرآن عن مجاهد قال: إن أول ما نزل من القرآن: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ} و {ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ}.

القول الثاني:

أول ما نزل سورة المدثر: ودليل هذا القول الحديث الذي رواه البخاري ومسلم عن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف أنه قال: سألت جابر بن عبد الله: أي القرآن أنزل قبل؟ قال: يا أيها المدثر، فقلت: أو اقرأ. قال: جابر أحدثكم ما حدثنا به رسول الله -ﷺ- قال: "جاورت بحراء شهراً، فلما قضيت جوارى، نزلت فاستبطنت بطن الوادي، فنوديت، فنظرت أمامي وخلفي وعن يميني وعن شمالي فلم أر أحداً ثم نوديت. فنظرت فلم أر أحداً ثم نوديت فرفعت رأسي فإذا هو على العرش في الهواء "يعني: جبريل عليه السلام" فأخذتني رجفة شديدة، فأتيت خديجة فقلت: دثروني، فدثروني، فصبوا عليّ الماء، فأنزل الله عز وجل: {يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ، قُمْ فَأَنْذِرْ، وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ، وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ} وأجيب عن هذا الحديث:

1. أن المراد بالأولية في هذا الحديث محمول على أولية مخصوصة وليست أولية مطلقة³ فيحتمل:
أ- أن المراد أول سورة نزلت بعد فترة الوحي، ويشهد لهذا قول جابر في
ب- أن أول ما نزل للنبوة سورة اقرأ وللرسالة سورة المدثر.
ج- أن المدثر أول سورة كمل نزولها أي أن باقيها نزل قبل نزول بقية سورة اقرأ وغيرها.
د- أن سورة المدثر أول سورة تنزل لسبب خاص؛ حيث إن الرسول ﷺ، قال: "دثروني دثروني" فنزلت، أما سورة اقرأ فلغير سبب خاص بل نزلت ابتداء. قال ابن حجر: "ولا يخفى بُعد هذا الاحتمال".
2. أن جابر -رضي الله عنه- استنبط هذا الرأي باجتهاده وفهمه وليس بنص ما رواه عن الرسول -ﷺ- فتقدم عليه رواية عائشة -رضي الله عنها- قال الكرمانى: استخرج جابر "أول ما نزل: يا أيها المدثر" باجتهاد وليس هو من روايته، والصحيح ما وقع في حديث عائشة.
- ويشهد لهذا أن جابر -رضي الله عنه- أخبر عما سمع، ولم يسمع كل ما حدث به رسول الله -ﷺ- قبل فترة الوحي الذي روته عائشة، فاقصر على ما سمع ظاناً أنه ليس هناك غيره.
3. أن في حديث جابر رضي الله عنه ما يدل على أن الرسول -ﷺ- رأى جبريل قبل ذلك، حيث جاء في حديث جابر رضي الله عنه: "إذا هو على العرش" وإشارته إليه بالضمير تدل على أنه سبق ذكره وفي رواية أصرح "إذا الملك الذي جاءني بحراء..".

ولهذا فإن هذا الدليل غير كاف لإثبات أولية النزول لسورة المدثر، بل وصف النووي رحمه الله تعالى القول بأن أول ما نزل سورة المدثر بأنه "ضعيف بل باطل، والصواب أن أول ما نزل على الإطلاق: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ}

القول الثالث:

إن أول ما نزل سورة الفاتحة. واستدل أصحاب هذا القول بـ:

- 1) ما رواه البيهقي عن أبي ميسرة عمرو بن شرحبيل أن رسول الله -ﷺ- قال لخديجة: "إني إذا خلوت وحدي سمعت نداء، وقد والله خشيت أن يكون هذا أمراً" فقالت: "معاذ الله ما كان الله ليفعل بك، فوالله إنك لتؤدي الأمانة، وتصل الرحم، وتصدق الحديث، فلما دخل أبو بكر ... " الحديث، وفيه أن خديجة قالت لأبي بكر: اذهب مع محمد إلى ورقة فانطلقا إليه فقصا عليه، فقال: "إذا خلوت وحدي سمعت نداء خلفي يا محمد يا محمد فانطلق هارباً

في الأرض"، فقال: لا تفعل، فإذا أتاك فاثبت حتى تسمع ما يقول، ثم ائتني فأخبرني، فلما خلا ناداه: يا محمد، قل
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الحمد لله رب العالمين حتى بلغ ولا الضالين" الحديث

وقد زعم الزمخشري أن "أكثر المفسرين على أن الفاتحة أول ما نزل ثم سورة القلم" ورد عليه ابن حجر: "والذي ذهب
إليه أكثر الأئمة هو الأول، وأما الذي نسبته إلى الأكثر فلم يقل به إلا عدد أقل من القليل بالنسبة إلى من قال بالأول"
ويعني بالأول صدر سورة اقرأ.

ويرد على أصحاب هذا القول برود منها:

أ- أن هذا الحديث لا يدل على أن الفاتحة كانت أول ما نزل بل فيه دلالة على أن جبريل خاطب الرسول -صلى الله
عليه وسلم- غير مرة وليس فيه نفي بنزول شيء من القرآن في بعضها، فلا يصح الاستدلال بهذا على الأولية.
ب- أن الحديث مرسل فلا يقوى على مناهضة حديث عائشة المرفوع
وقد عقب البيهقي على هذا الحديث بقوله: "فهذا منقطع، فإن كان محفوظاً فيحتمل أن يكون خبراً عن نزولها بعد ما نزلت
عليه: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ} و {يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ} والله أعلم".

وأورد ابن كثير حديث البيهقي ثم عقب عليه بقوله: "هذا لفظ البيهقي وهو مرسل، وفيه غرابة وهو كون الفاتحة أول ما
نزل".

وقال الإمام النووي رحمه الله تعالى: "وأما قول من قال من المفسرين أول ما نزل الفاتحة فبطلانه أظهر من أن يذكر
والله أعلم"

القول الرابع:

إن أول ما نزل "بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ". ولأصحاب هذا القول أدلة منها:

- 1- حديث أبي ميسرة السابق وقلنا: إنه حديث مرسل لا يقوى على مناهضة المرفوع.
- 2- ما أخرجه الواحدي عن عكرمة والحسن قالاً: أول ما نزل من القرآن بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، فهو أول ما
نزل من القرآن بمكة وأول سورة اقرأ باسم ربك¹ وهو أيضاً حديث مرسل لا يقوى على مناهضة
حديث عائشة المرفوع.
- 3- ما أخرجه ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى عن الضحاك عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال:
أول ما نزل جبريل على محمد. قال: "يا محمد استعذ، قل: أستعذ بالسميع العليم من الشيطان الرجيم" ثم قال:
"قل: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ" ثم قال: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ} " قال عبد الله: وهي أول سورة أنزلها
الله على محمد بلسان جبريل" قال ابن كثير: "وهذا الأثر غريب، وإنما ذكرناه ليعرف، فإن في إسناده
ضعفاً وانقطاعاً".

"قلت" ومع ضعفه وانقطاعه فهو حجة عليهم لا لهم؛ إذ إن ابن عباس رضي الله عنهما صرح فيه بأولية نزول اقرأ ولم
يعتد بأولية ذكر البسملة.

الله عنهما صرح فيه بأولية نزول اقرأ ولم يعتد بأولية ذكر البسملة.

ثم إن البسملة فاتحة لكل سورة تنزل فلا يعتد بأوليئها أولية مطلقة. وبهذا كله يظهر بطلان هذا القول.

وقد جمع القاضي أبو بكر في الانتصار -كما نقله عنه الزركشي- بين هذه الأقوال فقال:

وطريق الجمع بين الأقاويل أن أول ما نزل من الآيات {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ} وأول ما نزل من أوامر التبليغ {يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ} وأول ما نزل من السور سورة الأفعال العلماء في آخر ما نزل من القرآن الكريم:

اختلف العلماء رحمهم الله تعالى في آخر ما نزل من القرآن.

قال البيهقي رحمه الله تعالى في بيان سبب هذا الاختلاف: "قلت: هذا الاختلاف يرجع -والله أعلم- إلى أن كل واحد منهم أخبر بما عنده من العلم، أو أراد أن ما ذكر من أواخر الآيات التي نزلت، والله أعلم".

وقال القاضي أبو بكر: "هذه الأقوال ليس فيها شيء مرفوع إلى النبي صلى الله عليه وسلم أخبر عن آخر ما سمعه من النبي - ﷺ - في اليوم الذي مات فيه، أو قبل مرضه بقليل، وغيره سمع منه بعد ذلك، وإن لم يسمعه هو، ويحتمل أيضًا أن تنزل هذه الآية التي هي آخر آية تلاها الرسول - ﷺ - مع آيات نزلت معها فيؤمر برسم ما نزل معها بعد رسم تلك فيظن وللعلماء في آخر ما نزل من القرآن الكريم كله أقوال منها:

القول الأول:

روي عن عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- وابن عباس -رضي الله عنهما- أن آخر ما نزل آية الربا وهي قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} ومن الأدلة على ذلك:

ومن الأدلة على ذلك:

- 1- ما رواه البخاري رحمه الله تعالى في باب: {وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ} عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: "آخر آية نزلت على النبي ﷺ آية الربا".
- 2- ما رواه الإمام أحمد في مسنده وابن ماجه والبيهقي عن سعيد بن المسيب قال: قال عمر رضي الله عنه: "إن آخر ما نزل من القرآن آية الربا وأن رسول الله - ﷺ - قبض ولم يفسرها فدعوا الربا والريبة".
- 3- ما رواه ابن مردويه عن أبي سعيد الخدري -رضي الله عنه- قال: خطبنا عمر فقال: إن من آخر القرآن نزولاً آية الربا".
- 4- ما أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن عن ابن شهاب الزهري قال: آخر القرآن عهدًا بالعرش آية الربا وآية الدين في لفظ آخر "إن من آخر ما أنزل آية الربا

القول الثاني:

إن آخر ما نزل قوله تعالى: {وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ} الآية 1 واستدل أصحاب هذا القول بأدلة منها:

- 1- ما رواه النسائي والبيهقي من طريق عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: آخر شيء نزل من القرآن: {وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ} الآية ورواه الطبري بلفظ: آخر آية نزلت على النبي ﷺ: {وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ}.
- 2- ما أخرجه ابن مردويه من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس: آخر آية نزلت من القرآن على النبي ﷺ: {وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ}.
- 3- ما أخرجه ابن جرير الطبري عن الضحاك وعن ابن جريج كلاهما عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: آخر آية نزلت من القرآن: {وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ}.

القول الثالث:

إن آخر ما نزل من القرآن آية الدين وهي أطول آية في القرآن الكريم وأولها: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ ... } الآية 1 واستدل أصحاب هذا القول بما يلي:

- 1- ما أخرجه أبو عبيدة في الفضائل عن ابن شهاب قال: آخر القرآن عهدًا بالعرش آية الربا وآية الدين.
- 2- ما أخرجه ابن جرير الطبري عن ابن شهاب قال: حدثني سعيد بن المسيب: أنه بلغه أن أحدث القرآن عهدًا بالعرش آية الدين.

الجمع بين هذه الأقوال الثلاثة:

ومن ينظر إلى هذه الأقوال الثلاثة ويتدبرها يجد أنها بمثابة قول واحد؛ ذلك:

- 1- أن هذه الآيات آيات متتابعة في سورة البقرة من الآية 278 إلى الآية 282 فالقول فيها بمثابة قول واحد فكل راو يذكر بعض آخر ما نزل.
- 2- أن ابن عباس -رضي الله عنهما- روى عنه القول بأن آخر ما نزل آية {وَاتَّقُوا يَوْمًا} وروي عنه القول بأن آخر ما نزل آية الربا. والجمع بين القولين أولى من إبطال أحدهما.
- 3- أن البخاري -رحمه الله تعالى- أورد بدقته وثاقب نظره قول ابن عباس آخر آية نزلت على النبي -ﷺ- آية الربا "في باب قوله تعالى: {وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ} فجعل بهذه الإشارة الموضوع واحدا والروايتين متحدثتين غير متعارضتين رحمه الله.

ولهذا قال ابن حجر: "وطريق الجمع بين هذين القولين أن هذه الآية يعني: {وَاتَّقُوا يَوْمًا} هي ختام الآيات المنزلة في الربا إذ هي معطوفة عليهن".

وقد جمع بينهما السيوطي فقال: "قلت: ولا منافاة عندي بين هذه الروايات في آية الربا -واتقوا يومًا- وآية الدين - لأن الظاهر أنها نزلت دفعة واحدة كترتيبها في المصحف، ولأنها في قصة واحدة، فأخبر كل عن بعض ما نزل بأنه آخر وذلك صحيح".

وبهذا يظهر أن هذه الأقوال الثلاثة قول واحد وهو القول الصحيح.

القول الرابع:

أن آخر ما نزل قوله تعالى: {يَسْتَقْبُوكَ قُلُوبُ اللَّهِ يُفْتِكُمْ فِي الْكَلَالَةِ} الآية 1.

واستدل أصحاب هذا القول بما رواه البخاري عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: آخر سورة نزلت براءة، وآخر آية نزلت يستقونك

ولمسلم عن البراء "آخر آية أنزلت آية الكلاله وآخر سورة أنزلت براءة" وفي لفظ آخر سورة أنزلت كاملة³.

ويجاب عن هذا بحمل المراد على أنه آخر ما نزل في المواريث وليس آخر ما نزل من القرآن على الإطلاق فهي آخريه مقيدة لا مطلقة.

وجمع ابن حجر -رحمه الله تعالى- بين هذا القول والقول بأن آخر ما نزل آية الربا وآية {وَاتَّقُوا يَوْمًا} .. الآية بأن الآيتين نزلتا جميعًا فيصدق أن كلا منهما آخر بالنسبة لما عداها ويحتمل أن تكون الآخريه في آية النساء مقيدة بما يتعلق بالمواريث مثلاً بخلاف آية البقرة، ويحتمل عكسه والأول أرجح لما في آية البقرة من الإشارة إلى معنى الوفاة المستلزمة لخاتمة النزول.

القول الخامس:

إن آخر ما نزل قوله تعالى: {وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا}.

واستدلوا بما رواه البخاري ومسلم -رحمهما الله تعالى- عن سعيد بن جبير قال: آية اختلف فيها أهل الكوفة، فرحلت فيها إلى ابن عباس فسأله عنها، فقال: نزلت هذه الآية {وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ} هي آخر ما نزل وما نسخها شيء.

"قلت": ويحمل قول ابن عباس رضي الله عنهما على أنه أراد بالآخريّة آخر ما نزل في قتل النفس، ويشهد لهذا المعنى قوله في الحديث "وما نسخها شيء"، كما يشهد له الحديث الذي رواه مسلم عن سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس: ألمن قتل مؤمناً متعمداً من توبة؟ قال: لا. قال: فتلوت عليه هذه الآية التي في الفرقان {وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ} إلى آخر الآية 2. قال: هذه آية مكية نسختها آية مدنية: {وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ}.

"قلت": فقله عنها: إنها آخر ما نزل، يعني في هذا المعنى والله أعلم، وقد أشكل هذا القول على السيوطي رحمه الله تعالى فعد هذا القول من غريب ما ورد

القول السادس:

إن آخر ما نزل الآيتان الأخيرتان من سورة التوبة: {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ} ويشهد لهذا القول:

- 1- ما رواه الحاكم في المستدرک عن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: آخر ما نزل من القرآن: {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ}.
- 2- ما أخرجه ابن مردويه عن أبي أيضاً قال: آخر القرآن عهداً بالله هاتان الآيتان: {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ}.
- 3- ما أخرجه أبو الشيخ في تفسيره من طريق علي بن زيد عن يوسف المكي عن ابن عباس قال: آخر آية نزلت: {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ}.

"قلت": ويجب عن هذا القول بأن يحمل المراد بالآخريّة على آخر ما نزل من سورة التوبة لا آخر ما نزل من القرآن على الإطلاق، ويشهد لهذا ما روي أن أبي بن كعب -رضي الله عنه- قال للذين يجمعون القرآن في عهد أبي بكر لما بلغوا قوله تعالى: {ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ}: {إِنْ رَسُولَ اللَّهِ -ﷺ- أَقْرَأَنِي بَعْدَهَا آيَتَيْنِ: {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ} إلى قوله: {وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ} وقال: هذا آخر ما نزل من القرآن، قال فخنم بما فتح به الله الذي لا إله إلا هو

القول السابع:

إن آخر ما نزل من القرآن كله قوله تعالى: {فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أَضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ}.

واستدلوا بما أخرجه ابن مردويه عن أم سلمة -رضي الله عنها- قالت: آخر آية نزلت هذه الآية: {فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ} إلى آخرها.

ويجاب عن هذا بأن المراد آخر ثلاث آيات ذكرت النساء، فقد روي عنها رضي الله عنها أنها قالت: يا رسول الله أرى الله يذكر الرجال ولا يذكر النساء، فنزلت {وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ} ونزلت: {إِنَّ الْمُسْلِمِينَ

وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ} ونزلت هذه الآية 4 فلعلها أرادت: إن هذه الآية آخر هذه الآيات نزولاً، ولهذا قال السيوطي: "فهي آخر الثلاثة نزولاً أو آخر ما نزل بعد ما كان ينزل في الرجال خاصة

القول الثامن:

أن آخر ما نزل قوله تعالى: {فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا} الآية 1.

ودليل ذلك ما أخرجه الطبري -رحمه الله تعالى- عن عمرو بن قيس الكندي أنه سمع معاوية بن أبي سفيان تلا هذه الآية: {فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا} وقال: إنها آخر آية أنزلت من القرآن

وقد رد ابن كثير -رحمه الله تعالى- هذا القول بقوله: "وهذا أثر مشكل، فإن هذه الآية آخر سورة الكهف، والكهف كلها مكية، ولعل معاوية أراد أنه لم ينزل بعدها آية تنسخها ولا تغير حكمها، بل هي مثبتة محكمة، فاشتبه ذلك على بعض الرواة فروى بالمعنى على ما فهمه، والله أعلم

وقد عد السيوطي -رحمه الله تعالى- هذا القول من غريب ما ورد في ذلك.

"قلت": ولعل ابن كثير -رحمه الله تعالى- سها عن أن هذه الآية مما لا يدخله النسخ؛ لأنها أمرٌ بالعمل الصالح ونهي عن الشرك، ومثل هذا لا يمكن أن يدخله نسخ، فلا يصح أن يحمل قصد معاوية -رضي الله عنه- على أنها لم تنسخ بل يحمل على أنه أراد أنها آخر آية في سورة الكهف كما مر بنا في آخر سورة التوبة، والله أعلم.

هذه هي أهم الأقوال الواردة في آخر ما نزل من القرآن، وهناك أقوال أخرى يوردها كثير من المهتمين في هذا المبحث مع أنها لا تدخل هنا وإنما في مبحث أوائل وأواخر مخصوصة.

إشكال ودفعه:

قد يشكك فهم قوله تعالى: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا}.

فإن لم تكن هذه الآية هي آخر ما نزل بل نزل بعدها آيات، فكيف يقول اليوم أكملت لكم دينكم؟

والجواب: أن هذه الآية نزلت على الرسول -ﷺ- وهو يخطب في يوم عرفة في حجة الوداع في السنة العاشرة وبالتحديد ظهر يوم الجمعة 9/12/10 هـ وإذا كان الرسول -عليه الصلاة والسلام- توفي يوم الاثنين لليلتين خلتا من ربيع الأول سنة 11 هـ فتكون هذه الآية قد نزلت قبل وفاته -ﷺ- بنحو واحد وثمانين يوماً وقد مر بنا أن قوله تعالى: {وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ} 1 قد نزلت قبل وفاته عليه الصلاة والسلام بتسع ليال، وبهذا يظهر أن المراد بقوله تعالى: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ} الآية 2، ليس إكمال نزول القرآن أو أن هذه الآية هي آخر ما نزل منه، وقد بين العلماء المراد بإكمال الدين فمن ذلك:

- 1- ما رواه ابن جرير عن ابن عباس -رضي الله عنهما- في قوله تعالى: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ} وهو الإسلام قال: أخبر الله نبيه -ﷺ- والمؤمنين أنه قد أكمل لهم الإيمان فلا يحتاجون إلى زيادة أبداً وقد أتمه الله عز ذكره، فلا ينقصه أبداً، وقد رضى عليه فلا يسخطه أبداً وفسر قوله: {وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي} بقوله: كان المشركون والمسلمون يحجون جميعاً فلما نزلت "براءة" فنفى المشركين عن البيت، وحج المسلمون لا يشاركهم في البيت الحرام أحد من المشركين فكان ذلك من تمام النعمة: {وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي}
- 2- أن المراد بإكمال الدين إكمال الحج، والمعنى اليوم أكملت لكم حجكم فأفردتم بالبلد الحرام تحجونه أنتم أيها المؤمنون دون المشركين لا يخالطكم في حجكم مشرك.

3- أن المراد بإكمال الدين إعلاء كلمته وظهوره على الدين كله وفي حجة الوداع ظهرت شوكة هذا الدين وعلت كلمته، فقد كان المشركون يحجون مع المسلمين ويزاحمونهم في المشاعر فأمر الرسول -صلى الله عليه وسلم- أن لا يحج مشرك فامتثل المشركون أمره وأعلى الله كلمته ولم يجروا أحد منهم على مخالفته.

قال ابن جرير رحمه الله تعالى: "وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله عز وجل أخبر نبيه -ﷺ- والمؤمنين به، وأنه أكمل لهم -يوم أنزل هذه الآية على نبيه- دينهم بإفرادهم البلد الحرام وإجلائه عنه المشركين حتى حجه المسلمون دونهم لا يخالطونهم المشركون

أوائل وأواخر مخصوصة:

وكما بحث العلماء أول ما نزل وآخر ما نزل من القرآن على الإطلاق، فقد أولوا عنايتهم واهتمامهم في معرفة أوائل ما نزل وأواخر ما نزل في موضوعات خاصة كالقتال، والربا، والخمر، والأطعمة، والأشربة، وغير ذلك.

ونظرًا لما في معرفة ذلك من أثر كبير في معرفة الحكم الشرعي، والذي وقع بجهله عدد من العلماء فضلًا عن من دونهم في أخطاء عظيمة فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا، وأصبح كلامهم حجة عند آخرين، فإني سأبين هنا بشيء من التفصيل بعض هذه الأوائل والأواخر المخصوصة وهي:

- 1- أول وآخر ما نزل في الخمر.
- 2- أول وآخر ما نزل في الربا.
- 3- أول ما نزل وآخر ما نزل في الجهاد.

أولاً: أول ما نزل وآخر ما نزل في الخمر:

وإنما قدمته ليكون لوضوحه وظهوره ميزانًا نعرف به مقدار الخطأ الذي وقع من بعض العلماء والمفتين في البحثين الآخرين الربا والجهاد.

وتظهر في التدرج في تحريم الخمر والمراحل التي مر بها حكم الله سبحانه وتعالى، فقد كان الخمر ميسرًا في الجاهلية لمبتغيه فالتمر والعنب أصناف لا يخلو منها بيت في أرض الحجاز، فالنخيل من زراعة المدينة وما حولها ولا يزال، والعنب في الطائف ولا يزال، واعتصارهما خمرًا أمر معروف لا يكاد ينكره أحد، وشربه شأن مألوف لا يكاد ينكره أحد. وليس من السهل الامتنال للإقلاع عنه لأول الأمر ما لم يكن وراء ذلك عقيدة راسخة واقتناع تام.

فجاء القرآن الكريم بترسيخ العقيدة وتثبيت أركانها حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام شرع في الحلال والحرام ومنه حكم الخمر، مراعيًا أحوالهم فيها واعتيادهم عليها، متخذًا من رسوخ العقيدة والتدرج في التحريم وسيلة حكيمة لعلاج هذا الداء وانتزاعه من جسد هذه الأمة فجاء تحريمه بالتدرج،

وقد وصفت عائشة -رضي الله عنها- هذا التدرج فقالت: "إنما نزل أول ما نزل من القرآن سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء لا تشربوا الخمر لقالوا: لا ندع الخمر أبدًا، ولو نزل لا تزنا لقالوا: لا ندع الزنا أبدًا. لقد نزل بمكة على محمد -ﷺ- وإني لجارية لعب: {بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرٌ} 1. وما نزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عنده".

وجاء التدرج في تحريم الخمر على النحو التالي:

المرحلة الأولى:

أو ما نزل في الخمر قوله تعالى: {وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا}.

وقد ذكر ابن العربي أقوال العلماء في معنى "سكرًا" ثم قال: أما هذه الأقاويل فأسدها قول ابن عباس: "أن السكر الخمر"4 وهل نزلت هذه

قد ذكر ابن العربي أقوال العلماء في معنى "سكرًا" ثم قال: أما هذه الأقاويل فأسدها قول ابن عباس: "أن السكر الخمر" وهل نزلت هذه الآية قبل تحريم الخمر أو بعده قال ابن العربي: والصحيح أن ذلك كان قبل تحريم الخمر، فإن هذه الآية مكية باتفاق من العلماء، وتحريم الخمر مدني.

فتقسيم هذه الآية ما يتخذون من الخمر إلى قسمين هما:

1- سكرًا.

2- رزقًا حسنًا.

فيه إشارة إلى أن السكر ليس من الرزق الحسن وإذا لم يكن كذلك فهو من الرزق الخبيث، وقد ورد وصف الرسول - ﷺ - بقوله تعالى: {وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ} وإذا كان السكر من الخبائث والرسول - ﷺ - يحرم الخبائث فالخمر حرام. لكن هذا ليس نصًا يوجب الامتناع والكف لكنه إشارة فهمها من فهمها توطئة لدرجة أعلى في التحريم وهي المرحلة الثانية

المرحلة الثانية:

قوله تعالى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا}.

كأن السؤال في هذه الآية نتيجة عدم التصريح بالحكم في الآية الأولى، ولهذا روي عن عمر رضي الله عنه أنه قال لما نزل تحريم الخمر: اللهم بين لنا في الخمر بيانًا شافيًا فنزلت هذه الآية التي في البقرة: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ ...}

وتعتبر هذه المرحلة أعلى من المرتبة التي قبلها في التحريم حيث صرحت بالإثم، وصرحت بأن الإثم أكبر من النفع، وفي ذلك إشارة إلى أن العاقل لا يقدم على فعل شيء ضرره أكبر من نفعه وأن عليه أن يفكر في ذلك، ولهذا جاءت الفاصلة في الآية: {لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} فكان النص على الإثم توطئة للنص على التحريم ولو في أوقات مخصوصة في المرحلة الثالثة.

المرحلة الثالثة:

قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ} 1 وهي أول نص في التحريم، وحتى التحريم كان على مرحلتين تلك المرحلة هي المرحلة الأولى منه تحريم في أوقات معينة وهناك أوقات يظل الخمر فيها مباحًا لكن هذه الأوقات تضيق حتى لا يكاد مبتغيها يجدها؛ فإن شرب بعد الظهر فلن يدري ما يقول قبل العصر وإن شرب بعد العصر فلن يدري قبل المغرب وإن شرب بعد المغرب فلن يدري قبل العشاء، وبقل الشرب بعد العشاء لمزاحمته وقت النوم وهم ليسوا أهل سمر وسهر، فمن يسهر سينام في النهار وكيف يكتسب معاشه، وإن نام بعد العشاء وشرب بعد الفجر فكيف سيعمل ويكتسب وهو في هذه الحالة!! ولهذا قال ابن كثير: "وقد يحتمل أن يكون المراد التعريض بالنهي عن السكر بالكلية لكونهم مأمورين بالصلاة في الخمسة الأوقات من الليل والنهار فلا يتمكن شارب الخمر من أداء الصلاة في أوقاتها دائما والله أعلم"2، كل هذا كان إرهابا وتوطئة لتحريم الخمر تحريمًا قاطعًا صارمًا عامًا شاملاً في المرحلة الرابعة وهي:

المرحلة الرابعة:

قوله تعالى: {إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رَجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}

وللمتدبر أن يطيل النظر فيما تحويه هذه الآية وما بعدها من تهئية للتحريم، ومراعاة لواقع القوم وتمكن الخمر منهم فمزج النص القاطع في تحريمها ببيان آثارها وعواقب شربها الخطيرة وآثار طاعة الله وعواقب معصيته.

ثم وصف الخمر بأوصاف تكفي لتحريمها بأنها رجس وبأنها من عمل الشيطان، وكفى بهذين الأمرين إشارة للتحريم، ومع هذا فقد صرح بالحكم "فاجتنبوه" وتلكم -والله- أبلغ كلمة، نعم إنها أبلغ من "حرام" أو "فاتركوها" أو "لا تشربوها" لأن من لم يشرب الخمر ولكنها وجدت في بيته أو في غرفته لم يخالف النصوص الأخيرة "حرام، فاتركوه، لا تشربوه" لأنه لم يرتكب شيئاً منها لكنه خالف "فاجتنبوه" إذ الاجتناب يقتضي أن تكون في جانب والخمر في جانب آخر غير جانبك، فإن كانت في غرفتك أو في دارك فأنت لم تجتنبها والخطاب ليس بالافراد بل بالجمع للمسلمين عامة، فإذا وجد في بيت جارك

وجب على المسلمين إتلافه فإن لم يفعلوا فإنهم لم يجتنبوه لأنه بينهم بل إن وجد في بلد آخر من بلاد الإسلام ولهم قدرة على إزالته ولم يفعلوا فهم لم يجتنبوه، إن الأمر بالاجتناب يقتضي أن يكون في جانب وبلاد المسلمين في جانب آخر أرايتم إلى أي مدى وصل التحريم بهذه الكلمة.

تلكم المراحل التي مر بها تحريم الخمر، ولو قال قائل: إن الخمر فيها إثم وفيها منافع قلنا: تلكم مرحلة في التحريم، وإن قال: إن الخمر محرمة قرب الصلاة جائزة في غير أوقات الصلاة قلنا: تلك مرحلة تجاوزها التشريع إلى مرحلة الحسم في التحريم، فإن الحكم الشرعي إذا مر بمراحل فالحكم للمرحلة الأخيرة فيه.

أقول هذا توطئة للمرحلتين التاليتين اللتين يقع في خطأ فيهما بعض المفتين وهما مراحل تحريم الربا ومراحل تشريع الجهاد

ثانياً: أول ما نزل وآخر ما نزل في تحريم الربا:

وذلك أن تحريم الربا أيضاً مر بمراحل أربع كالمراحل التي مر بها تحريم الخمر وهي:

المرحلة الأولى:

أول ما نزل في الربا قوله تعالى: {وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رَبٍّ لِيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُوَ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ}.

وليس في هذه الآية نص على تحريم الربا وإنما إشارة إلى أن الله يحق الربا فلا ينمو ولا يبارك الله فيه بخلاف الزكاة التي يراد بها وجه الله فإنه سبحانه يضاعف الثواب لصاحبه.

وهي مرحلة شبيهة تماماً بالمرحلة الأولى في تحريم الخمر حيث بين هناك أن السكر ليس بالرزق الحسن.

المرحلة الثانية:

قوله تعالى: {فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا، وَأَخَذَهُمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا}.

وكما بين في المرحلة الثانية من تحريم الخمر أن فيه إثم وفيه منافع وأن الإثم أكبر من النفع فإنه هنا في المرحلة الثانية من تحريم الربا أشار إلى أن من معاصي اليهود أكلهم الربا وقد نهوا عنه، وفي ذلك إشارة إلى أنه إذا كان أكل الربا والتعامل به محرماً على اليهود فأولى أن يكون كذلك بين المسلمين وهم خير أمة أخرجت للناس وهو تحريم بالتلويح والتعريض لا بالنص الصريح وفي هذا توطئة للنص على التحريم في المرحلة التالية.

المرحلة الثالثة:

قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}.

فحرم الربا على مرحلتين كما حرم الخمر على مرحلتين، وإذا كان تحريم الخمر بدأ بتحريمه في أوقات معينة فإن تحريم الربا بدأ بتحريم نسبة منه معينة وهي ما كانت أضعافاً مضاعفة تمهيداً لتحريمه كله في المرحلة الأخيرة.

المرحلة الرابعة:

قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ، فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ} وكما أنه - سبحانه - غلظ في تحريم الخمر في المرحلة الأخيرة بالأمر باجتنابه ووصفه بأنه رجس وأنه من عمل الشيطان فإنه هنا في تحريم الربا غلظ في تحريمه بالتهديد والوعيد لأصحابه ووصفهم بأنهم محاربون لله ورسوله وهل بعد هذا أغلظ في التحريم وأبشع في الوصف.

ولعدم إدراك بعض الناس لهذه المراحل التي مر بها تحريم الربا وقعوا في الخطأ في الفتيا فأباح بعضهم الربا اليسير وهو الذي لا يصل إلى الأضعاف المتضاعفة جهلاً منه بأن هذا كان في مرحلة من مراحل تحريم الربا وأنه بهذا كمن يبيح الخمر في غير أوقات الصلاة مستنداً بقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ} ولعله يظهر بهذا أهمية معرفة أول ما نزل وآخر ما نزل، والله المستعان.

ثالثاً: أول ما نزل وآخر ما نزل في تشريع الجهاد:

وقد مر تشريع الجهاد بمراحل هي:

المرحلة الأولى:

وهي المرحلة المكية، حيث لم يشرع الجهاد وإنما أمروا بالعفو والصفح فمن الآيات المكية: {فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ} ، {ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} ، {فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ} ، {وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ} ، {وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا} ، {وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا} ، {وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ} والآيات المكية في هذا المعنى كثيرة فلم يؤمروا بالقتال بل بالكف عنه وقد صرح بهذا الحكم قوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كُتِبَ عَلَيْنَا الْقِتَالُ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ}.

المرحلة الثانية:

بعد نيف وسبعين آية مكية في النهي عن القتال 9 أذن بالقتال بمعنى إباحته لا وجوبه للمهاجرين منهم خاصة الذين أخرجوا من ديارهم، قال تعالى: {أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ، الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ}.

قال ابن تيمية - رحمه الله تعالى: ولأن الله لما بعث نبيه وأمره بدعوة الخلق إلى دينه لم يأذن له في قتل أحد على ذلك ولا قتاله حتى هاجر إلى المدينة فأذن له وللمسلمين بقوله تعالى: {أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا}.

ورجح ابن العربي أن أول آية نزلت آية الحج: {أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ} ثم نزل: {وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ} فكان القتال إذناً ثم أصبح بعد ذلك فرضاً، ثم أمر بقتال الكل فقال: {فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ} الآية 3

فوائد معرفة أول ما نزل وآخر ما نزل:

وتشترك معرفة أول ما نزل وآخر ما نزل مع معرفة المكي والمدني في فوائد كثيرة منها:

أولاً: تمييز الناسخ من المنسوخ:

وذلك حين ورود آيتين بحكمين مختلفين فإن معرفة أول ما نزل وآخر ما نزل تعين على معرفة الناسخ من المنسوخ، ومثال ذلك قوله تعالى في عدة المرأة المتوفى عنها زوجها: {وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ} 1 فقد بينت هذه الآية أن العدة عام

قوله تعالى: {وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا} 1 جعل العدة أربعة أشهر وعشراً، وإذا عرفنا أن هذه الآية هي آخر ما نزل عرفنا أنها هي الناسخة.

ثانياً:

معرفة تاريخ التشريع الإسلامي وتدرجه الحكيم في التشريع، وقد مر بنا استعراض المراحل التي مر بها تحريم الخمر وكيف تمت مراعاة أحوالهم حيث اعتادوا شرب الخمر، لا يكاد يخلو منها بيت وكيف تدرج في علاج هذه المشكلة حتى خرجوا إلى بر الأمان والسلامة والإسلام بحكمة بالغة.

ثالثاً:

الاستعانة بمعرفة أول ما نزل وآخر ما نزل في تفسير القرآن التفسير السليم واستنباط الحكم الصحيح، وقد عرفنا ذلك في معرفة أول وآخر ما نزل في الربا والجهاد والخطأ الذي وقع فيه بعضهم بسبب جهل معرفة أول وآخر ما نزل.

رابعاً:

تذوق أساليب القرآن الكريم والاستفادة من ذلك في أسلوب الدعوة إلى الله تعالى حيث يكون بأسلوب لتقرير حكم ثم يختلف الأسلوب لتقرير حكم آخر بالوعد مرة والوعيد أخرى وبالترغيب أو بالترهيب أو بالتخيير أو الإلزام حسب ما يناسب الحال.

خامساً:

معرفة السيرة النبوية وترتيب أحداثها حسب حديث القرآن عنها ومتابعة أحوال الرسول -ﷺ- ومواقفه في الدعوة في مكة وسيرته في الدعوة إلى الله بعد الهجرة؛ مما يوقف الدعاة خاصة والمسلمين عامة على أصدق حديث عن أفضل سيرة لأحسن قدوة عليه الصلاة والسلام.

سادساً:

إظهار عناية الصحابة والعلماء من بعدهم بالقرآن الكريم حتى عرفوا أول ما نزل وآخر ما نزل من القرآن كله وفي كل حكم من أحكامه الذي لا يمكن الوصول إليه وإدراكه إلا بالجهد الكبير والاهتمام العظيم مما يوجب على من بعدهم الاقتداء بهم والسير على نهجهم.

جهود المملكة العربية السعودية في خدمة القرآن الكريم

إنشاء مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف:

ولهذا احتاج الأمر أن يهب الغيورون لحماية المصحف والإنفاق على طبعه الطباعات السليمة في خدمة القرآن الكريم فتصدت لهذا الأمر حكومة المملكة العربية السعودية وفقها الله بإنشاء "مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف" بالمدينة النبوية وزود بأحدث وأرقى أنظمة الطباعة وإمكاناتها لإصدار طبعة سليمة ممتازة للمصحف توفر له العناية العلمية اللازمة بتصحيحه ومراجعته، بإشراف عدد من العلماء البارزين المتخصصين ونشر هذا المصحف على أوسع نطاق، وبهذا يتحقق سد حاجة المسلمين لهذا النوع من الطباعة، والحد من تلاعب ضعاف النفوس من الناشرين والطابعين بكتاب الله.

وفي 20/ 4/ 1404 هـ تم تشكيل لجنة لاختيار مصحف تجري طباعته وتكونت اللجنة من خمسة عشر عضواً وروعي في تشكيلها أن تتضمن علماء مختصين في سائر العلوم المتصلة بالمصحف. وتم اختيار المصحف الذي كتبه الخطاط الدمشقي عثمان طه وذلك لجودة خطه ووضوحه وسلاسته ولقلة الأخطاء فيه وقامت اللجنة بمراجعته وفحصه فحصاً دقيقاً آية آية، وكلمة كلمة، وحرفاً حرفاً، وحركة حركة مع الفحص الدقيق للاصطلاحات والرموز وتم ختم القرآن في أثناء المراجعة أكثر من مائتي مرة. وقامت اللجنة بإجراء تعديلاتها وتصحيحاتها حتى جاءت طبعتها أفضل طبعة صدرت للمصحف حتى الآن وألزمها لرسم المصحف، وأقلها خطأ بتوفيق الله عز وجل. واعتمدت لهذا المصحف اسم "مصحف المدينة النبوية".

وقامت حكومة المملكة العربية السعودية بطبع ملايين النسخ 1 من هذا المصحف بأحجام مختلفة وتوزيعه في سائر أنحاء العالم الإسلامي هدية منها إلى الشعوب الإسلامية في كل مكان، كما تفضلت بسنة حميدة وهي إهداء نسخة من هذا المصحف لكل حاج في جميع منافذ هذه البلاد، ولسلامة هذه البلاد من أخطاء الطباعات الأخرى منعت الحكومة السعودية دخول أي طبعة للقرآن وقد أدركت حكمة المملكة العربية السعودية -وفقها الله تعالى- إلى كل خير - الحاجة الماسة للعناية بطباعة المصحف وتسجيله، فأنشأت "مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف" وتم افتتاحه في السادس من شهر صفر عام 1405 ومن أهداف هذا المجمع:

3- تسجيل القرآن الكريم:

يضم المجمع استديو للتسجيلات الصوتية، مجهزاً بأحدث الآلات والمعدات ذات التقنية العالية، حيث يتم تسجيل تلاوة القرآن الكريم بأصوات كبار القراء بالمملكة والعالم الإسلامي تحت إشراف لجنة من كبار العلماء تراقب أعمال التسجيل. ويسعى المجمع في خطته المستقبلية إلى إنتاج إصدارات صوتية لترجمة معاني القرآن الكريم باللغات المختلفة. وتبلغ الطاقة الإنتاجية من أشرطة الكاسيت في المجمع أكثر من مليونين وأربع مائة ألف شريط سنوياً.

وحتى نهاية رجب عام 1423 هـ تم تسجيل القرآن الكريم كاملاً برواية حفص عن عاصم بأصوات كل من:

1- الشيخ علي بن عبد الرحمن الحذيفي إمام المسجد النبوي الشريف.

2- الشيخ محمد أيوب محمد يوسف.

- 3- الشيخ عبد الله بن علي بصفر.
- 4- الشيخ إبراهيم الأخضر علي القيم.
- 5- الدكتور عماد بن زهير حافظ.

كما تم تسجيل القرآن الكريم كاملاً بصوت الشيخ علي الحذيفي برواية قالون عن نافع.

وتم تسجيل معاني القرآن الكريم مترجمة إلى اللغة الأورمية وهناك خطة لتسجيل معاني القرآن الكريم بلغات أخرى.

4- الوفاء باحتياجات الحرمين الشريفين والمساجد والعالم الإسلامي من الإصدارات الخاصة بالقرآن الكريم.

5- خدمة السنة والسيرة النبوية الشريفة.

وذلك بجمع وحفظ الكتب والمخطوطات والوثائق والمعلومات المتعلقة بالسنة والسيرة وإعداد موسوعة في الحديث النبوي إلى جانب ترجمة بعض أمهات كتب السنة والسيرة.

6- إجراء البحوث والدراسات المتعلقة بالقرآن والسنة الكريم غير طبعة "مصحف المدينة

جهود المملكة العربية السعودية في ترجمة معاني القرآن الكريم:

من الطبيعي أن تولي المملكة العربية السعودية ترجمة معاني القرآن الكريم اهتماماً خاصاً انطلاقاً من اهتمامها ورعايتها للأصل: القرآن الكريم نفسه، وانسجماً مع قيامها بالدعوة إلى الإسلام في أرجاء المعمورة بين غير الناطقين باللغة العربية. وبالرغم أن المملكة اهتمت بتعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها من خلال إنشاء معاهد لتعليم اللغة العربية في داخل المملكة وخارجها

تمشياً مع قناعتها بأن خير وسيلة لفهم كتاب الله وسنة رسوله ﷺ هي معرفة اللغة العربية لغة الإسلام ولغة كتابه الخالد إلا أن ذلك لم يمنعها من العناية بترجمات القرآن الكريم إلى اللغات العالمية سواء كانت لغات المسلمين أو غيرها.

وقد كان بداية اهتمام المملكة العربية السعودية بترجمات معاني القرآن الكريم من خلال الاستفادة من الموجود في الساحة من الترجمات خاصة تلك التي أعدها مسلمون حيث كانت المملكة تشتري كميات من تلك الترجمات وتوزعها على من يجيدون لغاتها من المسلمين وغيرهم. وهكذا اشترت المملكة أو طبعت ترجمة عبد الله يوسف علي باللغة الإنجليزية، وترجمة المسلم البريطاني محمد مرمادوك بكتال بكميات كبيرة واستمرت على توزيعها بين المسلمين وغيرهم

وكذلك استعمالها في برامجها الدعوية الموجهة لغير الناطقين بالعربية. وقد تمت طباعة ترجمة معاني القرآن الكريم لعبد الله يوسف علي من قبل جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في الرياض، وكذلك من قبل الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.

ومن الجدير بالذكر أن ترجمات معاني القرآن الإنجليزية الموجودة في الساحة تعاني من النقص بطريقة أو أخرى، فترجمة بكتال فيها بعض الأخطاء في الترجمة في عدة مواضع، وترجمة عبد الله يوسف علي جمعت إلى وجود الأخطاء وجود مفاهيم وأفكار تخالف منهج السلف في الفهم والتفسير، وذلك من خلال تأثر المترجم بالأفكار الصوفية والمفاهيم الفلسفية التي تصطدم بنقاء العقيدة الإسلامية الصافية.

هذا بالإضافة إلى حرص المترجم على أن تكون ترجمته مقبولة لدى القارئ الغربي مما دفعه إلى طرح بعض المفاهيم ومعالجتها من وجهة نظر القارئ الغربي. وقد قاده ذلك إلى أسلوب توفيقى واعتذاري عن بعض المواقف الإسلامية ومحاولة تفسيرها بطريقة تسعى لإقناع القارئ غير المسلم حتى لو لم يكن التفسير المقدم هو التفسير الراجح أو المختار عند عامة المفسرين المسلمين (1).

لما كثر وصول الملاحظات على ترجمة عبد الله يوسف علي إلى الرئاسة العامة للبحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد شكلت الرئاسة لجنة لمراجعة تلك الترجمة. وقد عرض على الباحث شيء من عمل اللجنة فكتب اقتراحاً مطولاً يعرض رأيه حول أفضل السبل لمراجعة الترجمة، وكان لا يرى بعض الرئاسة العامة للبحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد ومن الخطوات التي اتخذتها لجنة المراجعة.

وعند ما خرّجت الترجمة المراجعة وجد الباحث أنها لم تأخذ إلا بالقليل من آرائه، وربما كان سبب ذلك أن مقترحاته وصلت إلى اللجنة متأخرة. على أي حال طبعت الرئاسة الترجمة المراجعة ووزعتها على المراكز والهيئات الإسلامية. وقد اقتصر عمل لجنة المراجعة على استبعاد بعض الآراء والمفاهيم الواضحة الخطأ مع استبدال كلمة God بكلمة Allah بالإضافة إلى الأمور الأخرى التي وردت في الملاحظات على الترجمة. ورغم أن هذه المراجعة لترجمة عبد الله يوسف علي كانت أفضل بكثير من الأصل إلا أنها لم تكن مرضية تماماً لنقاد الترجمة. هذا بالإضافة إلى ما أنتجته هذه المراجعة من أخطاء جديدة بعضها طباعي وبعضها يتعلق بعدم دقة المراجعة الشاملة للترجمة، حيث حذفت أشياء من بعض المواقع وبقيت الإشارة إليها في مواقع أخرى.

تحميلاً لأقوال المترجم رحمه الله في أكثر من موقع أكثر مما تحتمل. وقاد اختلاف وجهة نظر اللجنتين إلى اجتماع مشترك بينهما تم في المدينة المنورة في مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف. وبالرغم من أن الاجتماع كان مفيداً، ووضحت خلاله بعض أسباب الخلاف، إلا أن موقف كلتا اللجنتين لم يتغير بعده إلا قليلاً.

وقد تبنى مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف منذ إيقاف طباعة ترجمة عبد الله يوسف علي ترجمة معاني القرآن الكريم التي أعدها الدكتوران محمد محسن خان وتقي الدين الهلالي. وهذه الترجمة أسلم من ترجمة عبد الله يوسف علي من الناحية العقدية هي بعيدة عن التفسيرات التي لا تتفق مع تفسيرات السلف. وبالإضافة إلى خلوها من المشكلات التي وردت في الترجمة السابقة إلا أنها أكثر مناسبة للقراء المسلمين، وذلك لاستعمال المترجمين بعض العبارات العربية الإسلامية التي لا يعرفها إلا المسلمون. هذا بالإضافة إلى الاستعانة الكثيرة بالأقواس التفسيرية التي تحتوي أحياناً على عدة خيارات دون تحديد الخيار المناسب في كل سياق.

فمثلاً كلمة آية تعني ثلاثة أو أربعة معانٍ تورّد كلها بين قوسين ويترك الخيار للقارئ. ولا شك أن هذا الأسلوب يحد من انسيابية الترجمة ويضطر القارئ إلى التوقف ومحاولة تخمين المعنى المراد من خلال ربطه بالسياق الذي وردت الكلمة في إطاره. وهناك سبب آخر لعدم مناسبة ترجمة محمد عبد المحسن خان وتقي الدين الهلالي لغير المسلمين هو اختيارها بعض المعاني التي قد تكون سبباً في صد غير المسلمين، وبخاصة اليهود والنصارى، مثل اختيار كون المعنى بالمغضوب والضالين باليهود والنصارى، دون الأخذ بالمفهوم العام الذي يدخل فيه ضمناً اليهود والنصارى وغيرهم ممن عرف الحق فلم يقبله أو ممن ضلّ عنه بسبب أو لآخر.

لقد كان إنشاء مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف فتحاً عظيماً في مجال خدمة كتاب الله وإيصاله إلى أنحاء العالم بطبعات أنيقة ومدرّسة على أسس علمية من حيث الرسم والتحقيق والإتقان في الطباعة والدقة في الترجمة.

وليس ذلك فحسب بل شملت جهود المجمع العناية بترجمة معاني القرآن الكريم إلى أكثر من ثلاثين لغة من اللغات العالمية أكثر من نصفها لغات إسلامية. وتتميز ترجمات معاني القرآن الكريم التي يصدرها المجمع بسلامة العقيدة على منهج السلف الصالح، وصحة الأحكام الشرعية، وذلك لكون المترجمين والمراجعين مسلمين وكذلك بسبب الأسس الصارمة التي يضعها المجمع، ويلزم المترجمين والمراجعين باتباعها.

ويتبع المجمع بعض الإجراءات المحددة في اختيار ترجمات معاني القرآن الكريم ونشرها. وفيما يلي أهم تلك الإجراءات:

- (1) يتم تحديد اللغة التي ينوي المجمع نشر ترجمة لمعاني القرآن الكريم بها وذلك حسب الأولويات التي تحددها أهمية اللغة، وسعة انتشارها، وعدد المتكلمين بها وحاجة المسلمين الناطقين بها إلى ترجمة، أو كون الناطقين بها مُعَرَّضين للتقصير أو غيره ممن يصرفهم عن دينهم.
- (2) مخاطبة الجهات التي يمكن أن تتوافر لديها ترجمة اللغة المطلوبة. وفي حالة وجود الترجمة تطلب نسخة منها للدراسة.
- (3) تشرح بعض الجهات أو الجمعيات ترجمات معينة للمجمع يقوم بدراستها واختيار الصالح منها.
- (4) تشكل لجنة متخصصة ممن يجيدون لغة الترجمة المطلوبة أو المعروضة مع إجادة اللغة العربية والعلوم الشرعية من ذوي العقيدة السليمة لدراسة الترجمة وإبداء الرأي فيها من جميع النواحي، وبخاصة من ناحيتي العقيدة والأحكام الشرعية. وتقدم اللجنة تقريراً مفصلاً تبين فيه الأخطاء الواردة في الترجمة مع بيان الصواب.
- (5) بناء على توصية اللجنة المكلفة يتم قبول الترجمة أو رفضها.
- (6) في حالة قبول الترجمة يزود المترجم بملاحظات اللجنة عليها ويطلب إليه الموافقة على تعديل الترجمة في ضوء تلك الملاحظات.
- (7) إذا وافق المترجم على تعديل الترجمة حسب ملاحظات المجمع تتخذ الإجراءات اللازمة لطباعة الترجمة بعد تعديلها.

ومن الجدير بالذكر أن لدى المجمع مركزاً للترجمات من ضمن أجهزته مجلس للترجمات، وهو مكون من عدد من المتخصصين في اللغات والعقيدة والعلوم الشرعية. ومن مهام هذا المركز دراسة الترجمات التي ترد للمجمع وترشيح المناسب منها للطباعة.

وفيما يلي عرض للترجمات التي نشرها المجمع باللغات الثلاثين مع الملاحظات الضرورية أمام كل ترجمة تشرح مكان انتشار لغة الترجمة، وعدد الناطقين بها، وأنواع إصدارات المجمع من تلك الترجمة.

1. ترجمة معاني القرآن الكريم باللغة الأردية التي يتحدثها أكثر من 300 مليون نسمة في شبه القارة الهندية وعدد من دول العالم حيث هاجر أبناؤها والترجمة باللغة الأردية ترجمة كاملة للقرآن الكريم قام بها محمد الجوناكر هي ومعها تفسير مختصر لفضيلة الشيخ صلاح الدين يوسف والنص القرآني. وقد طبعها المجمع بالحجم العادي وحجم الجيب وترجمة سورة الفاتحة وجزء عم، صدرت عام 1417هـ.
2. ترجمة معاني القرآن الكريم باللغة الأرومية ويتحدث بها حوالي 30 مليوناً في منطقة الحبشة ولأنها لغة غير مكتوبة ولا انتشار الأمية بين أبنائها فقد أصدر المجمع الترجمة على أشرطة مسموعة بترجمة الشيخ محمد رشاد الهرري الطرطري وتفسيره.
3. ترجمة معاني القرآن الكريم باللغة الإسبانية التي يتحدث بها حوالي 300 مليون نسمة في إسبانيا والأمريكيتين. وقد أصدر المجمع ترجمة كاملة، وترجمة معاني سورة الفاتحة وجزء عم. قام بالترجمة والتفسير المختصر الشيخ عبد الغني ميلارا نابيو وصدرت عن المجمع عام 1417.
4. ترجمة معاني القرآن الكريم بالألبانية التي يتحدث بها حوالي سبعة عشر مليوناً في ألبانيا وبعض المهاجرين الألبان في عدد من دول العالم. وقام بالترجمة شريف أحمددي. ومع أنه لم تذكر سنة الطباعة فقد انتهى المترجم من الترجمة في 28 أبريل 1987م.
5. ترجمة معاني القرآن الكريم باللغة الإندونيسية، وهي لغة أكبر دولة إسلامية ويتحدث بها حوالي 250 مليون نسمة في إندونيسيا وخارجها. وقد أصدر المجمع الترجمة بهذه اللغة كاملة وكذلك ترجمة معاني سورة الفاتحة

- وجزاء عم عام 1418هـ والترجمة التي طبعها المجمع لم يذكر اسم المترجم ولكنها معتمدة من وزارة الشؤون الدينية الإندونيسية.
6. ترجمة معاني القرآن الكريم باللغة الإنجليزية وهي أهم اللغات الحية وتنتشر في بريطانيا والولايات المتحدة وأستراليا وكندا وعدد من الدول بالإضافة إلى كونها لغة التجارة ويتحدث بها قطاع الأعمال في كل مكان تقريباً ويتحدث بها أكثر من 550 مليون نسمة. وقد طبع المجمع الترجمة كاملة بالحجم العادي والجيب مع النص القرآني وبدونه، وكذلك ترجمة معاني سورة الفاتحة وجزاء عم. وكان ذلك عام 1417هـ وقد قام بالترجمة الدكتوران محمد تقي الدين الهلالي ومحمد محسن خان.
7. ترجمة معاني القرآن بلغة الأنكو (البمبارا) وهي لغة يتحدث بها حوالي مليونين من سكان عدة دول في غرب القارة الإفريقية. وقد سارع المجمع إلى إصدار ترجمة بهذه اللغة عند ما وضع لكتابة هذه اللغة فاستغله المنتصرون لترويج كتبهم ومنشوراتهم بهذا الحرف لتنصير المسلمين. وهذه الترجمة من إعداد الشيخ فوده سليمان كانت، وصدرت عن المجمع عام 1419هـ.
8. ترجمة معاني القرآن الكريم باللغة الأويغورية وهي لغة تركستان الشرقية المعروفة باسم سنكيانج في الصين وهي منطقة إسلامية تعاني كثيراً من العسف الصيني الملحد الذي يسعى إلى طمس هوية المسلمين هناك. وقد صدرت هذه الترجمة عام 1405هـ. قام بالترجمة الشيخ محمد بن صالح وراجعها عبد المجيد صادق الأبادي والدكتور عبد الرحيم الكاشغري تحت إشراف رابطة العالم الإسلامي.
9. ترجمة معاني القرآن الكريم باللغة البراهوية وهي لغة بلوچستان في باكستان ويتكلمها حوالي مليونين من الناس. وصدرت طبعة المجمع عام 1415هـ. قام بالترجمة الشيخ عبد الكريم مراد الأثري وأقرتها رابطة العالم الإسلامي.
10. ترجمة معاني القرآن الكريم بلغة البشتو وهي لغة معظم سكان أفغانستان وبعض سكان باكستان والمناطق المجاورة لأفغانستان في الشمال. وهذه الترجمة أعدها باللغة الأردية فضيلة الشيخ محمود الحسن، وأعدّ التفسير فضيلة الشيخ شبير أحمد عثماني، وترجم التفسير وترجمته الأردية إلى لغة البشتو جماعة من علماء باكستان وراجعها من قبل رابطة العالم الإسلامي سيد عبيد الله شاه. وقد أقرت الترجمة والمراجعة رابطة العالم الإسلامي. وصدرت الترجمة والتفسير جزأين كبيرين ولم تذكر طبعة المجمع سنة الطباعة.
11. ترجمة معاني القرآن الكريم باللغة البنغالية وهي لغة البنغال ويتحدث بها أكثر من 215 مليون نسمة. وقد قام بالترجمة والتفسير من اللغة الأردية فضيلة الشيخ محي الدين خان معتمداً على تفسير الشيخ محمد شفيع مفتي باكستان الأسبق. وقد صدرت طبعة المجمع عام 1413هـ.
12. ترجمة معاني القرآن الكريم إلى اللغة البورمية وهي لغة المسلمين في بورما والمناطق المتاخمة لبورما من بنغلاديش. والبورميون يعانون الأمرين من الحكم الشيوعي البوذي في بورما الذي يعدّهم مواطنين من الدرجة الثالثة، بل يسعى لإخراجهم من المنطقة رغم وجودهم فيها منذ القرن الأول الهجري. وقد صدرت هذه الترجمة عن المجمع عام 1419هـ وهذه الترجمة قام بها مجموعة من العلماء وراجعها من قبل المجمع الشيخان عبد الحميد المظاهري الندوي وعبد الخالق عبد الولي. وتقع هذه الترجمة والتفسير في مجلدين كبيرين
13. ترجمة معاني القرآن الكريم باللغة البوسنوية وهي اللغة المعروفة باللغة الصربوكرواتية ويتحدث بها حوالي 18 مليوناً من سكان يوغسلافيا السابقة. ومنطقة البلقان لها ظروف خاصة، والوجود الإسلامي مهدد هناك رغم قدمه في المنطقة. وأصدر المجمع هذه الترجمة عام 1412هـ. وقد قام بالترجمة الشيخ نسيم كوركوت وراجعها المشايخ: يوسف راميتش ومحرم أو ميردتش ومحمد مراهورفتش. وقد أقرت رابطة العالم الإسلامي هذه الترجمة.
14. ترجمة معاني القرآن الكريم باللغة التاميلية وهي لغة ولاية التاملنادو في جنوب الهند ولغة بعض سكان سريلنكا ويتحدث بها حوالي 55 مليون نسمة. صدرت الترجمة عام 1414هـ. قام بهذه الترجمة الشيخ محمد إقبال

مدني وساعده الشيخ عبد الحميد مبارك وراجعها عدد من مبعوثي الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء واعتمدتها الرئاسة.

15. ترجمة معاني القرآن الكريم باللغة التايلندية التي تنتشر في تايلاند وبعض المناطق المجاورة مثل فيتنام والصين ولاوس، ويتحدث بها حوالي 50 مليون نسمة. وصدرت طبعة المجمع من هذه الترجمة عام 1419هـ. وهي من إعداد جمعية خريجي الجامعات والمعاهد العربية بتايلند وراجعها من قبل المجمع الدكتور عبد الله نومسوك والشيخ سوتي كلاي خام دي. والترجمة ملحق بها حواش تفسيرية.

16. ترجمة معاني القرآن الكريم باللغة التركية وهي اللغة التي يتحدث بها المسلمون في تركيا وبعض جمهوريات آسيا الوسطى وبعض الجمهوريات المستقلة استقلالاً ذاتياً في روسيا الاتحادية مثل بشكيرستان وتترستان والمسلمون في بلغاريا، ويتحدث بها حوالي 50 مليون نسمة. وقد أصدر المجمع هذه الترجمة عام 1412هـ. وقام بها مجموعة من الأساتذة هم: د. علي أوزك، د. خير الدين قرامان، د. علي تورغوت، د. مصطفى شاغريجي، د. إبراهيم كافي دونمز، د. صدر الدين كوموش، وقد أقرت هذه الترجمة رابطة العالم الإسلامي.

17. ترجمة معاني القرآن الكريم بلغة التغالوغ وهي اللغة الرسمية للفلبين ويتحدث بها حوالي 50 مليون نسمة والترجمة الصادرة عن المجمع هي ترجمة سورة الفاتحة وجزء عم فقط. وقد صدرت عام 1420هـ. قام بهذه الترجمة الجزئية الشيخان أبو الخير تراسون وبديع الزمان ساليا والأستاذ محمد الأمين رودريجز وراجعها من قبل المجمع الشيخان محمد نذير إبل والشيخ إبراهيم عبد الله بن عبد الله.

18. ترجمة معاني القرآن الكريم بلغة الزولو وهي إحدى لغات جنوب أفريقيا ويبلغ عدد المتكلمين بها حوالي 6 ملايين نسمة. والترجمة الصادرة عن المجمع مقتصرة على ترجمة آيات مختارة تتعلق بتفنيد عقائد النصارى لوجود النشاط التنصيري بين متحدثي لغة الزولو، وصدرت هذه الترجمة الجزئية عام 1419هـ. وقام بالترجمة الشيخ عمر موليليكي وراجعها من قبل المجمع الشيخان جميل كوبس وإسماعيل كمانا.

19. ترجمة معاني القرآن الكريم باللغة الصومالية وهي لغة يتحدث بها سكان الصومال وعدد من القبائل التي تسكن القرن الإفريقي في جيبوتي وأرتيريا وكينيا. وصدرت ترجمة المجمع عام 1412هـ. قام بالترجمة الشيخ محمود محمد عبده وراجعها لجنة من المشايخ: نور الدين علي السلفي، وشريف عبد النور حسن، وعبد الرحمن يوسف آدم وعبد الرحمن شيخ عمر أحمد دينله الذي قام بالمراجعة النهائية والتعليق على بعض الآيات. وقد أقرت هذه الترجمة رابطة العالم الإسلامي.

20. ترجمة معاني القرآن الكريم باللغة الصينية وهي لغة سكان الصين وهونج كونج وتايوان، ويتحدث بها حوالي مليار وربع المليار نسمة. وقد اشتملت إصدارات المجمع الترجمة الكاملة وترجمة جزء تبارك وترجمة معاني سورة الفاتحة وجزء عم. صدرت الترجمة عام 1407هـ. قام بها الشيخ محمد مكين وأقرتها الجمعية الإسلامية الصينية ورابطة العالم الإسلامي.

21. ترجمة معاني القرآن الكريم باللغة الفارسية وهي لغة إيران وطاجكستان وهي إحدى اللغتين السائدتين في أفغانستان ويتحدث بها حوالي 50 مليون نسمة. وقد اشتملت إصدارات المجمع الحجم العادي وحجم الجيب. وصدرت عام 1417هـ. قام بهذه الترجمة الشاه ولي الله الدهلوي وراجعها الشيخان عبد الغفور عبد الحق البلوشي ومحمد علي داري.

22. ترجمة معاني القرآن الكريم باللغة الفرنسية وهي لغة فرنسا وبلجيكا وسويسرا وعدد من الدول الإفريقية مثل مالي والسنغال وغيرها، ويتحدث بها حوالي 220 مليون نسمة وتأتي بعد الإنجليزية من حيث الأهمية. وقد أصدر المجمع الترجمة الكاملة وكذلك ترجمة معاني سورة الفاتحة وجزء عم عام 1415هـ. وهذه الترجمة مبنية على ترجمة الدكتور محمد حميد الله. وقد جرت مراجعتها من عدة لجان من قبل الرئاسة العامة للبحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد.

23. ترجمة معاني القرآن الكريم باللغة القازاقية وهي لغة مسلمي قازقستان إحدى الجمهوريات الإسلامية التي استقلت عن روسيا ويتحدث بها حوالي 6 ملايين شخص، وصدرت طبعة المجمع عام 1411هـ. قام بهذه الترجمة الشيخ خليفة آلطاي وراجعها الأستاذ ح. دليل خان جان آلطاي ووافقت عليها رابطة العالم الإسلامي.
24. ترجمة معاني القرآن الكريم باللغة الكشميرية وهي لغة المسلمين في جامو وكشمير الذين يتجاوز عددهم اثني عشر مليوناً. وكشمير منطقة تعاني من الاستعمار الهندي ويتعرض المسلمون فيها لكثير من العنت والظلم. وقد صدرت طبعة المجمع عام 1418هـ. قام بهذه الترجمة الشيخ مير واعظ محمد يوسف شاه وراجعها الشيخان عبد اللطيف شيخ عبد الرشيد وعبد اللطيف غلام الكشميري.
25. ترجمة معاني القرآن الكريم باللغة الكورية وهي لغة كوريا الجنوبية والشمالية ويتحدث بها كذلك ناس في اليابان والصين، ويبلغ عدد الناطقين بها نحو 60 مليون نسمة. ومع أن عدد المسلمين في كوريا لا يتجاوز الخمسين ألف نسمة إلا أن كوريا منطقة واحدة وتتعرض لجهود تنصيرية كبيرة. وصدرت ترجمة المجمع عام 1417هـ. وقام بالترجمة الدكتور حامد تشوي يونغ كيل.
26. ترجمة معاني القرآن الكريم باللغة المقدونية وهي لغة مقدونيا في منطقة البلقان ويتحدث بها حوالي مليوني شخص في ألبانيا واليونان، ويحتاج المسلمون إلى الدعم في نشر الثقافة الإسلامية. وصدرت طبعة لمجمع عام 1418هـ. وقد قام بالترجمة الشيخ حسن جلو، وراجعها من قبل المجمع لجنة متخصصة.
27. ترجمة معاني القرآن الكريم باللغة المليبارية وهي إحدى لغات الهند وتنتشر في ولاية كيرلا في جنوب الهند، ويتحدث هذه اللغة حوالي 25 مليون نسمة. وقد أصدر المجمع ترجمة كاملة وترجمة معاني سورة الفاتحة وجزء عم وذلك عام 1418هـ.
28. ترجمة معاني القرآن الكريم بلغة الهوسا وهي لغة إفريقية يتحدث بها حوالي 50 مليوناً من سكان نيجيريا والنيجر وشرق إفريقيا. صدرت ترجمة المجمع عام 1417هـ. قام بالترجمة الشيخ أبو بكر محمود جومي وراجعها الأساتذة: أبو بكر عثمان (صكتو) وأحمد بلو ومحمد إنواديكو بن آدم باكوديكو، كما راجعها من قبل المجمع الشيخان بشير علي عمر ومحمد ثاني عمر والدكتور أحمد جومي ابن المترجم.
29. ترجمة معاني القرآن الكريم بلغة اليوروبا وهي إحدى اللغات المهمة في نيجيريا وبنين والتوغو وبعض القبائل الإفريقية التي تُولف حوالي 17 مليوناً. وصدرت طبعة المجمع عام 1418هـ. قام بالترجمة لجنة من العلماء وراجعها من قبل المجمع الشيخان إبراهيم عبد الباقي وعبد الرزاق عبد المجيد الأرو.
30. ترجمة معاني القرآن الكريم باللغة اليونانية وهي لغة اليونان وقبرص وبعض المهاجرين في أمريكا وغيرها، ويتحدث بها حوالي 11 مليون نسمة. وصدرت طبعة المجمع عام 1418هـ. قام بالترجمة مجموعة من علماء الأزهر وراجعها من قبل المجمع الشيخ جهاد بلال خليل.

أحدث ترجمة لمعاني القرآن الكريم باللغة الإنجليزية:

حظيت اللغة الإنجليزية بجهود كبيرة في مجال ترجمة معاني القرآن الكريم إلى هذه اللغة حيث تجاوز عدد الترجمات الإنجليزية الخمسين ترجمة كاملة بالإضافة إلى عدد غير قليل من الترجمات الجزئية أو ترجمة آيات مختارة وقد اشترك في هذه الترجمات مسلمون وغير مسلمين، عرب وعجم من أبناء اللغة الإنجليزية ومن غيرهم. ومع ذلك فإن كل هذه الترجمات لا تخلو من بعض جوانب النقص إما في لغتها أو محتواها أو في الاثنين معا لدرجة أن المطلع على الترجمات يحار في اختيار المناسب منها الذي يرتقي إلى المستوى المرضي الذي تطمئن إليه النفس.

ولذا بقي الباب مفتوحاً لجهود جديدة تبني على ما سبق وتضيف ما يمكن إضافته من تحسينات في اللغة وتحري الدقة. وإدراكاً لأهمية السعي لإيجاد ترجمة تتجنب نقص الترجمات السابقة وتحاول الاقتراب إلى المستوى المطلوب قدر الاستطاعة فقد تعاون الباحث مع أحد الإخوة الدكاترة من أبناء اللغة الإنجليزية وممن له اهتمام بالقرآن وعلومه والدراسات الإسلامية والعربية، فأنجزا ترجمة حديثة لمعاني القرآن الكريم باللغة الإنجليزية تميزت بعدة ميزات

جعلتها أفضل ترجمات معاني القرآن الكريم الموجودة في الساحة. وذلك لأنه قد توافر لها من عوامل النجاح ما لم يتوافر لغيرها. وأهم ما يميز هذه الترجمة الأمور الآتية:

- 1- أنها أول ترجمة اشترك في إعدادها مترجمان متخصصان من أهل اللغتين العربية والإنجليزية. هذا بالإضافة إلى خبرتهما الدعوية ومعرفة احتياج غير الناطقين بالعربية والاطلاع على مشكلات الترجمات الموجودة.
 - 2- أنها أول ترجمة تراعي الجمهور الموجهة له من حيث لغتهم ومعرفتهم المفترضة بالإسلام، وكذلك مراعاة كونهم غير مسلمين وليس لديهم أي فكرة سابقة عن الإسلام أو اللغة العربية.
 - 3- مراعاة الناطقين بالإنجليزية من ذوي الثقافة المحدودة وذلك من خلال اللغة السهلة التي استعملها المترجمان حيث تجنبنا الكلمات الصعبة والمفردات التي من أصل عربي.
 - 4- الاستفادة من الترجمات الإنجليزية السابقة باقتباس المفيد ونقاط القوة فيها وتجنب الأخطاء التي وقعت فيها تلك الترجمات، وكذلك الأساليب التي كانت ماثرة نقد أو شكوى من بعض الناطقين بالإنجليزية.
 - 5- إعطاء مقدمة مختصرة عن كل سورة وسبب تسميتها مع إضافة بعض الحواشي عند ما تدعو
 - 6- إعطاء نبذة مختصرة عن الإسلام موجهة لغير المسلمين ليتعرفوا على السمات العامة لهذا الدين الذي يمثل القرآن مصدره الخالد ودستوره الشامل.
 - 7- إعطاء نبذة موجزة عن حياة الرسول الكريم ﷺ ورسالته الموجهة للبشرية جمعاء مع مسرد بالحوادث الرئيسة في حياته الكريمة.
 - 8- إعداد ملاحق للترجمة تحتوي على بعض الكتب المرشحة للقراءة لمزيد من المعلومات عن الإسلام وتعاليمه الشاملة، وكذلك نبذة عن المترجمين تبين أهليتهما للقيام بهذه الترجمة. وفي الملحق الثالث قُدِّم فهرس موضوعي لمحتويات الترجمة يسهل على القارئ والباحث الاطلاع على الموضوعات التي يريد معرفة ما قاله القرآن عنها. وهذا الفهرس مفيد للقارئ والدارس المتأني لمحتويات القرآن.
 - 9- الإشارة في المقدمة إلى بعض الصعوبات التي تعترض المترجم للقرآن الكريم إلى اللغة الإنجليزية، وذلك بذكر بعض الكلمات ذات المعاني المتعددة أو التي لا يكاد يوجد لها مقابل دقيق في اللغة الإنجليزية.
 - 10- تقديم شرح واضح لمنهج الترجمة ولغتها والجمهور المستهدف بها والمسوغات التي دعت إلى إضافة ترجمة جديدة رغم وجود أكثر من خمسين ترجمة إنجليزية في أيدي الناس.
- اتباع منهج السلف في فهم القرآن وتفسيره والاعتماد على التفاسير المعتمدة وبخاصة التفسير الميسر الذي أعدّه مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف في أخذ المعاني المباشرة، واختيار الأرجح عند تعدد المعنى.

ولأن هذه الترجمة قد استفادت من جهود المملكة العربية السعودية في مجال ترجمة القرآن الكريم وتفسيره وقدمت لمجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف لتبني طباعتها بالإضافة إلى كون أحد مترجميها من أبناء هذه البلاد المباركة فقد رأى الباحث أن يقدم عنها نبذة مختصرة في معرض الحديث عن جهود المملكة العربية السعودية في خدمة تفسير كتاب الله وترجمة معانيه.

إن الاستعراض الموجز لجهود المملكة العربية السعودية في خدمة كتاب الله في مجالي التفسير والترجمة لم يستوعب كل الجهود المقدرة التي تمت في أرض الحرمين الشريفين فيما يخص تفسير القرآن الكريم وترجمة معانيه. ولأن هذه الدراسة تعد الأولى في هذا المجال فهي لا تطمح إلى أكثر من فتح الباب للباحثين لتقديم مزيد من الرصد والحصص لتلك الجهود المباركة.

والله ولي التوفيق ومن وراء القصد،،